جامعــة أم درمــان الإســلامية
كليـــــة الدراســـــات العليـــا
كليـــــة اللغـــــة العربيـــــة
قسم الدراسات الأدبية والنقدية

تاج السر الحسن شاعراً

دراسة تحليلية نقدية

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالب/
فهمي علي فضل المولى

إشراف الدكتور/
أبو صباح علي الطيب

العام ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا
لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾

صدق الله العظيم

(سورة النحل الاية ١٠٣)

إهداء

إلى من قال فيهما الله عز وجل: "{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا"..

الحاجة فاطمة أحمد علي ..

والحاج علي فضل المولى دفع الله.

وإلى الأخ العزيز مؤيد علي فضل المولى

وإلى الزوجة العزيزة هبة يوسف محمد وإبني محمد

وإلى إخواني وأخواتي

وإلى الخالة العزيزة الرقاقة أحمد علي

وإلى جميع الأهل وآل جلي

وإلى كل من سره أن يراني سالكاً طريق العلم حباً وتقديراً إليهم جميعاً أهدي بحثي هذا.

الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	أ
الفهرست	ب
الشكر والعرفان	ت
المقدمة	ث
الفصل الأول : المولد والنشأة والبيئة والتعليم	١
المبحث الأول: المولد والنشأة	٢
المبحث الثاني: البيئة	٦
المبحث الثالث: التعليم ، وعمله ، وآثاره الأدبية	١٤
الفصل الثاني: قضايا المضمون في شعر ناجي السر الحسن	١٨
المبحث الأول : القضايا الاجتماعية	١٩
المبحث الثاني: القضايا السياسية	٥١
المبحث الثالث: القضايا الفكرية	٨٠
الفصل الثالث : قضايا الشكل في شعر ناجي السر الحسن	٩٦
المبحث الأول : اللغة والأسلوب	٩٧
المبحث الثاني: الموسيقا الشعرية	١١١
المبحث الثالث: الصورة الفنية	١٢٩
الخاتمة	١٤٠
التوصيات	١٤١
المراجع	١٤٢

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، إنطلاقاً من قوله تعالى : "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" ، وانبعاثاً من قول النبي صلى الله عليه وسلم : "ومن صنع لكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أن كافأتموه".

الشكر أولاً وأخيراً لله رب العالمين ، ثم الشكر لرمز العطاء المستمر منارةالعلم جامعة أم درمان الإسلامية والقائمين على أمرها ، وأخص بالشكر كلية اللغة العربية ، وكلية الدراسات العليا ، والشكر أجزله وأخلصه إلى أستاذي الفاضل الدكتور أبو صباح علي الطيب أبو صباح ، الذي تشرفت باشرافه على هذا البحث ، حتى اكتمل ، ورأى النور ، وذلك بفضل ما قدمه لي من النصح والإرشاد والتوجيه وقد ظل يساندني ويوجهني في كل مسألة تعترضني ، بكل رحابة صدر ، وبشاشة وجه دون ضجر أو ملل ، وهكذا عهدته منذ بداية البحث ، أدامه الله ذخراً لهذا البلد ، وأدام عليه نعمة الصحة والعافية.

والشكر أيضاً موصول إلى كل من ألقى نظرة على هذا البحث وزودني بالمعرفة والتوجيه ، والشكر أجزله وعظيم الامتنان لأستاذي الفاضل الشاعر الدكتور/ تاج السر الحسن الحسين ، موضوع البحث ،حفظه الله ، الذي أفادني بتوجيهاته الرشيدة ، والشكر موصول لابن عمي الدكتور/ زهير دفع الله لتوجيهاته المستمرة وكذلك لأسرة مكتبة جامعة أم درمان الإسلامية لما قدموه من مساعدة مقدرة في مجال العثور على المراجع والكتب ، وكذلك موصول لكل من شارك في إخراج هذا البحث بصورته الحالية ، كما أخص بالشكر الجزيل لجنة المناقشة والحكم لقبولها المشاركة في تقويم هذه الدراسة ، والحمد لله رب العالمين الذي منحني القوة والصبر لإتمام هذا البحث فإن وفقت فبفضل منه ورحمة وإن كان به قصور فمن عندي والله من وراء القصد.

مقدمـــــة:

الأدب في السودان مليئ بالشخصيات الفذة ، وكثيرون من أدباء الســودان كانت لهم بصمات واضحة وملموسة في المجال الأدبي والشعري عموماً فكان لابد من الوقوف على تجاربهم ، وما أضافوه للشعر العربي الحديث. ويعــد الشــعر واحداً من الفنون الهامة التي تحفظ لنا تاريخنا السياسي والاجتماعي والحضــاري فالشعر السوداني رافد من روافد الشعر العربي بالرغم من أنه لم يحظ بالاهتمــام والدراسة اللازمة التي تضعه في مكانه المناسب بــين شــعر الشــعوب العربيــة الأخرى إلا في الآونة الأخيرة حين اتجه السودانيون أنفسهم لهذا المجــال فكتبــوا دراسات عديدة حول تاريخ ونقد الشعر السوداني المعاصر ساعدت علــى نمــوه وتطوره ، مما أكسبه الشهرة التي جعلت له مكانة بين الشعر العربي المعاصــر ، وقد أردت أن أضيف هذا الجهد إلى جهودهم بدراستي لشعر تاج الســر الحســن الحسين التي يمكن أن تكون بذرة لدراسة كاملة تغطي كل حياته وشعره فالدراســة الكاملة أمرها أطول وأدق من أن تحصر في مثل هذه العجالة ، فقد تطرقت فــي دراستي إلى جزء يسير من حياة الشاعر وإلى جزء كبير من نصوصــه ونظمــه على سبيل المثال لا الحصر لمعرفة ما فيهامن قوة العاطفة وروعة الخيال وجمال اللغة والأسلوب ورفعة المعاني ورقة الموسيقى.

(أ) سبب اختيار الموضوع:

لعل من أبرز الأسباب التي دفعتني لاختيار هــذا الموضــوع هــو الميــل للدراسات السودانية ، فخطرت ببالي فكرة البحث عن شاعر سوداني لم يجــد مــا يستحقه من العناية مثل غيره من الشعراء هــؤلاء كــانوا كثيــرين فقــد صــعب التفضيل. ولكن تم اختيار الشاعر تاج السر الحسن لأنه كان أستاذ الباحــث فــي مرحلة البكالوريوس ثم بما قدمه للحركة الأدبية والشعرية في السودان ، لذلك رأى الدارس أن دراسته لشعر تاج السر ستكون أكثر جدوى من دراســة غيــره مــن الشعراء.

(ب) أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنها محاولة للتعريف بالشعر السوداني ومدى إمكان وصوله إلى مرامي الحداثة وتعريف بالشعراء السودانيين من خلال المكتبة العربية ولفت الأجيال إلى ذلك التراث الثر ، لذلك كانت الدراسة للشاعر تاج السر الحسن الذي كافح من أجل الحرية.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة شعر تاج السر الحسن لمعرفة مدى قوة شعره ، ودراسة تجربته الشعرية ، وإبراز القضايا الأدبية التي تناولها في شعره وتقويمها والكشف عما هو جديد فيها.

(ج) مشكلة البحث:

تعتبر مشكلة البحث موجودة في الشعر السوداني ، وذلك نسبة لعدم توفر المعرفة الكاملة بشعراء المدرسة الحديثة والاهتمام الضعيف من قبل الوزارات المعنية بهذه الشريحة من الشعراء الحديثيين.

وعلى كل تتمثل مشكلة البحث في الآتي:

١. قلة الدراسات التي تناولت الشعراء المعاصرين في السودان.

٢. ندرة الأقلام السودانية في التعريف بشعرنا العربي في السودان.

٣. الشاعر صال وجال في محراب الأدب والشعر ، وأن شهرته بين أقرانه وأصحابه كانت أعلى بكثير من شهرته بين الجمهور لذلك كان تعريف ذلك الشاعر من خلال شعره وإبداعه.

(د) أهداف البحث:

يهدف هذا البحث أساساً إلى إضافة دراسة جديدة تهتم بجانب الشعر السوداني ويمكن صياغة أهداف البحث في الآتي:

١. التعريف بشعر تاج السر الحسن.

٢. إضافة دراسة جديدة للمكتبة العربية.

٣. تأكيد شاعرية الشاعر التي ساهمت فيها كثير من الجوانب المتعلقة بالحياة الإنسانية.

٤. تأكيد أن الشاعر يستحق المانة القومية والجماهيرية كغيره من الشعراء والأدباء المعروفين قومياً وجماهيرياً.

(هـ) منهج البحث:

اعتمدت الدراسة على عدة مناهج منها التاريخي والوصفي والتحليلي متتبعاً حياة الشاعر الأولى والبيئة التي عاش فيها وأثرها عليه ، والمؤثرات العامة ومقومات تجربته الشعرية والخصائص الفكرية والسياسية.

(ز) هيكل البحث:

تناولت الدراسة جانباً من حياة الشاعر وشعره وقد جاءت في ثلاثة فصول حيث احتوى الفصل الأول والذي جاء بعنوان تاج السر الحسن المولد والنشأة و البيئة والتعليم على ثلاثة مباحث:

١. المبحث الأول: البيئة.
٢. المبحث الثاني: المولد والنشأة.
٣. المبحث الثالث: التعليم ، مجالات عمله ، وآثاره الأدبية.

أما الفصل الثاني فقد خصصته للقضايا الشعرية التي تناولها في شعره وقد حوى ثلاثة مباحث:

١. المبحث الأول : القضايا الاجتماعية.
٢. المبحث الثاني: القضايا السياسية.
٣. المبحث الثالث: القضايا الفكرية.

أما الفصل الثالث فسميته قضايا الشكل ، وقسمته إلى ثلاثة مباحث:

١. المبحث الأول : اللغة والأسلوب.
٢. المبحث الثاني: الموسيقا.
٣. المبحث الثالث: الصورة الفنية.

وقد ختمت البحث بذكر النتائج وبعض التوصيات التي آمـــل أن تجـــد القبول ، وأثبت المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها الدراسة التي آمـــل أن يجد فيها القارئ ما يفيده وينفعه.

وبعد ..

هذا مبلغ وقصارى جهدي فإن كنت قد وفقت فهذا بفضل الله سبحانه وتعالى ، فحسبي أنني بذلت كل ما أستطيع من جهد ووقت حتى خرج هذا البحـــث بهـــذه الصورة.

الفصل الأول

الشاعر تاج السر الحسن

المولد والنشأة والبيئة والتعليم

المبحث الأول: البيئة

المبحث الثاني: المولد والنشأة

المبحث الثالث: التعليم ، مجالات عمله ، وآثاره الأدبية

المبحث الأول

البيئـــــــة

البيئة الأولية بيئة قروية غلبت عليها حياة البداوة وصلة القرية البسيطة، ثم جاءت حياة المدينة ، ومن بعدها حياة الغربة ، حيث فجرت فيه ينابيع شتى تطورت أكثر نسبة للنقلة الكبيرة بين القاهرة واليمن وموسكو.

جزيرة (أرتولي) هي مرتع الشاعر ، وقد وهبها الله خيراً كثيراً ، وذلك بأن جعل نهر النيل يجري بأرضها ليزينها بالخضرة والأشجار ، مما يجعلها حديقة غناء تتجمع فيها الطيور الجميلة التي تبعث صوتاً جميلاً يؤثر في النفوس الشفافة ، وكما أنها تحتضن الرمال التي تعكس لوناً ذهبياً مع شروق الشمس في تلك اللوحة الجميلة التي شكلتها الطبيعة تفتحت قريحة شاعرنا على تلك المشاهد.

يقول الشاعر عن جزيرة (أرتولي): "للأسف غرقت جزيرة (أرتولي) بسبب فيضان النيل كانت جميلة وكثيرة الأشجار ، وكان شجر النخيل يحيط بها ، وكنت أذكر حكاوي الجدة بنت الصادق الجميلة عن الغول والدودو وغيرها من الأشباح ، وبعد أن ارتحلنا عنها كنت أزورها بين الحين والآخر ، وتعلمت فيها السباحة وصيد الأسماك."[1]

سئل الشاعر عن سبب الارتحال إلى مدينة النهود ، فقال : "من الواضح سبب الرحيل هو عدم توفر الرزق بسبب ضيق الجروف الزراعية ، كما أن طبيعة عمل الوالد بالتجارة في مدينة النهود كان سبب آخر."[2]

وقد تأثر الشاعر بالجزيرة تأثيراً كبيراً، وأفرد لها مساحة واسعة في شعره من ذلك قوله:

ها هنا في غربتي لا تتركيني

---

١ من لقاء عمر الجزلي بالشاعر على الفضائية السودانية في برنامج "أسماء في حياتنا" ، الحلقة الأولى ، بتاريخ ٢٠٠٥/٧/٥م.

٢ المصدر السابق ، الحلقة الثانية بتاريخ ٢٠٠٥/٧/١٢م.

بين طيات جناحيك خذيني

للبحار الخضر في أرض الشمال الساحرة

لأمانيك النقيات ودنيا الذكريات الطاهرة

إنني أحببت في عينيك شطآن البحار

إنني غردت مصلوباً على كومة نار

إنني في الليل في الفجر وفي صمت النهار

أتلوى مثل مقتول بآلاف الرماح[1]

ثم ارتحل إلى مدينة النهود تلك البقعة ذات الموقع الجغرافي المتميز، وذلك لأنها تقع في وسط السودان تقريباً ، ولها طبيعة ساحرة وأفق رحيب ومناخ معتدل ومعالم بارزة ومناظر جميلة ، وذلك لموقعها بين الجبال.

أما مجتمع النهود فهو يتألف من مختلف الأجناس من جميع ولايات السودان وذلك لتوفر مصادر الرزق فيها لأنها قريبة من المناطق المنتجة للزراعة والرعي ، مما جعل منها سوقاً ضخماً أدى لوفود التجار إليه من مختلف المناطق والمدن بل ودول الجوار الذين يحملون ثقافات مختلفة كما أن وجود المعهد العلمي الديني فيها الذي كان مرتبطاً بالأزهر الشريف قد ميزها بكثرة الثقافات وجعل العلماء والأساتذة يفدون إليها ليس من السودان فحسب بل من دول أخرى فقد وفد إليها الشيخ أحمد الأزهري الذي أتى من شمال السودان والشيخ الفكي حديد أتى من غرب أفريقيا والشيخ أحمد عبد الجبار والشيخ كرسي من النيجر ، وهؤلاء العلماء أتوا ليُدَرِّسُوا في المعهد العلمي الديني ، ولم تدفع لهم مرتبات محفزة إلا ما يقدمه الطلاب وأهليهم من هدايا ، ونجد أنهم قد خصصوا لهم أرضاً يزرعوها في المواسم بمساعدة الطلبة وأهليهم.[2]

هكذا كانت مدينة النهود التي أضافت لشاعرنا الكثير من مصادر الشعر ، لأن الشعر صورة الوجدان ، ومرآة النفس ، وترجمان الشعور. فالشعر

---

١ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ٦٨.

٢ عمر الجزلي : لقاء مع الشاعر ، برنامج أسماء في حياتنا ، الحلقة الثانية ، بتاريخ ٢٠٠٥/٧/٢١م.

والشعور من طبيعة واحدة ، أو أن الشعر هو فيض الشعور. والقول إن الأدب انعكاس ذاتي لا يعني أنه خبرة شخصية محدودة فحسب ، إنه وإن انبعث عن ذات الإنسان فهو لا يقف عندها بل يمتد إلى سائر الناس. والأدب الرفيع هو ما اتسعت فيه شخصية الأديب حتى تصبح مشاعره الخاصة مشاعر إنسانية عامة.[١]

ومشاعر الشاعر تنمو حسب البيئات التي عاش فيها وتأثر بها ومن هذه البيئات التي عاش فيها شاعرنا وتأثر بها بيئة النهود، لذلك نجده أوردها في شعره بأشكال مختلفة مما يدل على آثارها في نفسه. ونذكر بعض الأبيات التي جاءت تحت عنوان "وادي النهود" يقول فيها:

كردفان يا ربوع
يا أزاهراً تضوع
قد خضّر الخريف في وديانك الجذوع
لا تحسبونا نقبر الأشواق والحنان
لا تحسبونا نجهل الأيام والإخوان
فقد رسمنا في قلوبنا سهول كردفان
حشائش السوريب عندما تسور المياه
وشجر اللالوب حينما يفيض بالحياه
والسمبر الأنيق حين زغرد الخريف
لن تسمعوا سوى صدى الأمطار والحفيف
فما رسمت صورة لوجه كردفان
لكن رسمت قلبي المغترب الولهان[٢]

---

١ الابتداعية في الشعر العربي الحديث : تاج السر الحسن ، ص ١٠٨.
٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص ٧٦ – ٧٧.

مدينة النهود عبارة عن امتداد لجذور صخرية غاصت في مياه النيل وهي أرض خصبة تنمو فيها مجموعة من الأشجار والحشائش واللالوب والسدر وفي أرضها تتحدر المياه من الأعالي في فترة الخريف مما يخلق شكلاً جميلاً وذلك لاخضرار السهول بالحشائش والأشجار لذلك نجد أن الشاعر قد تأثر بها تأثراً كبيراً.

ثم كانت النقلة الحقيقية للشاعر من خلال هجرته إلى مصر التي كانت حلم الشباب المتطلعين والطامحين ، لأن مصر في الخمسينيات كانت قلعة العلم وتعد هذه الفترة من أخصب الفترات بالنسبة للشعر في مصر والوطن العربي.

هاجر الشاعر إلى مصر للدراسة ، ولأنه درس بمعهد النهود العلمي الذي كان يتبع للأزهر الشريف في ذلك الوقت ، قد سهل له أن يلتحق بالأزهر الشريف. أما بالنسبة إلى مصروفات السفر فيقول: "أهدت لي جدتي بنت الصادق – والدة أمي – عدداً من الأغنام ، وكان ذلك في جزيرة (أرتولي) وتكاثرت هذه الأغنام ، فأرسلوا لي مبلغاً وقدره ثلاثين جنيهاً ، وكان مبلغاً كبيراً في تلك الفترة مما مكنني من السفر والعودة مرة أخرى ، ولم أخبر الوالد بفكرة السفر خوافاً من الرفض ، ولكن الشقيق الأصغر الحسين أصر على إخباره وفعل ، وفي المساء جمعنا في مائدة العشاء ، وقال لي إنه سعيد بالسفر، لأنه يعلم أن مصر قلعة العلم ، وأمنية كل أب أن يلتحق بها ابنه ، وأعطاني مبلغ ثلاثين جنيهاً".[1]

"كانت القاهرة تموج بحركة أدبية رفيعة المستوى وسياسية عنيفة ومظاهرات تطالب بطرد المستعمر والكفاح المسلح ... وطلائع الشعر الحديث في قصائد عبد الرحمن الشرقاوي: "وقد ظلم كثيراً فهو أحد رواد التيار الاشتراكي ، ولم يتأثر بنازك الملائكة أو السياب" الذي هتف من أجل الاستقلال والتحرر ، ورفع الظلم عن الشعوب الفقيرة ، كما لا يغيب عن بالي ووجداني الفنان الإنسان الباحث زكريا الحجاوي تغمده الله بالرضوان حيث

١ عمر الجزلي : لقاء مع الشاعر في برنامج "أسماء في حياتنا" ، الحلقة الثانية ، بتاريخ ٢٠٠٥/٧/١٩م.

قدمنا في جريدة المصري – أكثر الجرائد شيوعاً وقتها – تاج السر وجيلي عبد الرحمن والفيتوري ، شعراء صغار وسود ينتزعون زعامة الشعر من السمر والبيض ويغرسون لواء الفن القومي في السودان."[١]

عاش الشاعر فترة الخمسينيات والستينيات في القاهرة ، التي كانت تذخر بالندوات ، حيث كانت تقام كل يوم. منها ندوة رابطة الأدب الحديث وركنها الناقد العظيم عبد اللطيف السحرتي – رحمه الله – عاش متواضعاً بعيداً عن الضوء بينما هو المعطف الذي خرجنا جميعاً منه ، والذي زودنا بالنقد الرصين ، فقد كتب عنا محللاً ومشجعاً وناقداً في كتبه القيمة ، ومنها ندوة نادي القصة وكان يختلف إليه ، يوسف السباعي ، محمود تيمور ، ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهم. وندوة الجمعية الأدبية التي كان يحضرها عز الدين إسماعيل ، وصلاح عبد الصبور وعبد الغفار مكاوي ، وعبد الرحمن فهمي وكان يحضر بين الحين والآخر شوقي ضيف وكان النقاش الأكاديمي المرتكز على نظريات الأدب والتذوق معاً."[٢]

وتجمعات أخرى مثل اللقاء الأسبوعي في منزل كامل السوافيري ، وكان يختلف إليه أحياناً الأخوان رجاء النقاش ، والمرحوم وحيد النقاش. ومقهى الجيزة ودعامته الركينة الناقد الأستاذ أنور المعداوي .. وفي غمرة اللقاءات الشعرية ، ورحاب المجالات الأدبية كانت تشع بعض المدارس التي يمثلها محمود خير ، وعبد الله شمس الدين وخالد الجرنوسي ، ومصطفى حمام ، وكان مركزها جمعية الشباب المسلمين التي كانت يشترك فيها الكيلاني سند ، ومحي الدين فارس وغيرهما من شعراء الحداثة. وجمعية الشباب المسيحيين في لقائها الشعري الذي كان يتصدره الشاعر خالد الجرنوسي ، والتي كانت

---

١ جيلي عبد الرحمن : شاعر الوقت في سياق آخر ، ص ٧٢.

٢ عمر الجزلي : لقاء مع الشاعر في برنامج "أسماء في حياتنا" ، الحلقة الثانية ، بتاريخ ٢٠٠٥/٧/١٩م.

ساحة الفيتوري ، وكمال نشأت ، والمرحوم فوزي الغشيل وغيرهم ، والتي اشترك فيها الشاعر وجيلي عبد الرحمن فيما بعد.[1]

هكذا ترى ثمة التعايش الخصب ، والتنافس المشروع دون تعصب أو انغلاق وكانت مصر ساحة شعرية وفكرية رائعة. وما ينشر في بلد يتردد صداه في كل مكان – لا حواجز أو سدود – والمقياس هو التجاوب والرؤية الجديدة. هكذا كانت الثورة الشعرية والفكرية والأدبية في مصر والقاهرة التي عاشها الشاعر.

يصور إبراهيم شعلان هذه البيئة أكثر تصويراً ، وذلك لأنه ربطها بالواقع الذي عاشه مع شاعرنا حيث يقول: "في فترة تعرفنا أنا وجيلي عبدالرحمن وتاج السر ومجموعتنا تلك كانت لحظات البهجة والفرح قليلة ونادرة جداً ، أما لحظات الشقاء الشديدة والشظف فهي القاعدة، وبالرغم من أنني كنت موظفاً صغيراً وهم طلاب إلا أنني كنت ضائعاً وسطهم ، ولا أقل عنهم بؤساً ، كنا نادراً ما نفرح فرحاً حقيقياً ، وذلك حينما يحضرون زملاؤنا العرب من الجزائر واليمن وغيرها من الدول ، وفي يوم من الأيام ذهبنا إلى الكازينو ، وكان تاج السر يلبس حذاءاً قديماً مرقعاً من كل جوانبه وعدد رقعه أكبر من مساحة الجزمة وكان يجر رجليه جراً من ثقلها .. وحينما جلسنا في الكازينو أخفى تاج السر الجزمة تحت المنضدة ، وأصيب جيلي وقتها بنوبة من الضحك وانزعج تاج السر من ضحك جيلي ، والجرسون يقف ليسألنا طلباتنا ، وبعد أن هدأ قليلاً جيلي من الضحك قال: "أيعقل أن يكون هذا هو الجرسون بعد كل الهيبة التي استشعرناها."[2]

ويصور عبده بدوي ظهور الواقعية في المجتمع العربي التي هي مرحلة من مراحل البيئة التي عاشها الشاعر وسيطرت عليه ، وأثرت فيه تأثيراً قوياً ، "ما نريد أن نؤكده أنه اقترب بصفة خاصة من الناس والحياة في القاهرة ومن

---

١ عمر الجزلي : لقاء مع الشاعر في برنامج "أسماء في حياتنا" ، الحلقة الثانية ، بتاريخ ٢٠٠٥/٧/١٩م
٢ جيلي عبد الرحمن : شاعر الوقت في سياق آخر ، ص ٢٧٢.

حركات التجديد .... تعرفت مصر خطوات عدد من الشبان في مقدمتهم جيلي عبد الرحمن ، وتاج السر ومحي الدين فارس ، ومحمد الفيتوري ، وحسن صبحي ، وقد عاشوا جميعاً في الخمسينيات ، وتعاطفوا مع الواقعية الاشتراكية بحكم ظروف الفقر التي كانت تحكم حياتهم فقد كان هؤلاء الشبان راغبين في تغيير حياتهم وحياة المجتمع من حولهم."[١]

على كل كانت هجرة الشاعر إلى مصر بمثابة طوق النجاة ليغير حياته الأدبية والفكرية، حيث وجد البيئة تذخر بالندوات الأدبية والحركات السياسية التي صقلت مواهبه ومدته بالكثير من التجارب.

هاجر إلى روسيا التي تعتبر مصدر الإلهام الاشتراكي الحقيقي ، كان الحضور إلى روسيا بمثابة نقطة تحول للاتجاه الواقعي الذي استهواه الشاعر. أعانت ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية في العالم العربي على إحداث تغيير في الخط الفكري الذي يسير فيه الأدب وأهم تلك الظروف إحساس الجماهير بحاجتها إلى نوع جديد من الأدب الذي يعبر عن متاعب الحياة في ظل الحروب التي اكتوت بها كل الشعوب العربية والعالمية سواء أكانت محاربة أو غير محاربة.[٢]

ومن هذا الواقع يتضح أن البيئة الجديدة التي أثرت في الشاعر بيئة اشتراكية يغلب عليها الفكر الشيوعي ، وظهر ذلك في بعض قصائده التي يمجد فيها الاتجاه الاشتراكي ، وينسب لهم المجد والثورة ، التي يشير لها بالحمراء ذلك الشعار الذي اتخذوه علماً لهم.

نجد أن الشاعر تاج السر الحسن يتمرحل في كتابة الشعر متأثراً بكتابة البيئات التي عاش فيها فامتلأ خياله بالتفكير الصوفي المتأثر بنشأته الدينية فشعر بالغربة عن الكون جميعه ، لكن هجرته إلى مصر مدته بتجارب جديدة فشعر أولاً بقضية واحدة ملكت عليه لبه وهي قضية غربته عن بلده ففاض

---

١ عبده بدوي : الشعر في السودان ، الخرطوم ، دار الوثائق القومية ، وزارة السودان ، د. ت. ص ٢١٦.
٢ شعراء الوطنية في السودان : صلاح الدين المليك ، جامعة الخرطوم ، دار التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ، ص ٢٨٩.

شعره بالحنين إليها ثم ما لبث الشاعر أن قوي عنده الـــوعي ، وذلـــك عنـــدما هاجر إلى الإتحاد السوفييتي "روسيا" فخرج من القضية الفردية إلـــى القضـــايا العامة.[1]

١ ديوان قصائد من السودان ، جيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن ، ص ١٠ ، ١١.

المبحث الثاني

المولد والنشأة

ولد الشاعر تاج السر الحسن في جزيرة (أرتولي) شمال بربر عام ١٩٣٠م ، وينتمي لأسرة دينية.[١]

ترجع أصولها القريبة إلى جزيرة (أرتولي) ، أما أصولها البعيدة الآتية من الشمال فتضرب بجذورها العريقة في جزيرة (بدين) و (مقرات) و (البجراوية) و (كبوشية) و (الكجيك) و (مسيد ود عيسى).[٢]

بدأت حياة الأسرة في جزيرة (أرتولي) حيث رزقت بأول مولود لها وهو الشاعر تاج السر ، ولم تستقر طويلاً فيها لأن طبيعة عمل الوالد حتمت عليها أن ترتحل إلى منطقة كردفان حيث كان يعمل الوالد بالتجارة في النهود ، هنالك رزقت بالمولود الثاني الشاعر الحسين الحسن ثم جاء المولود الثالث محمد الحسن الذي توفي مبكراً ثم المولود الرابعة فاطمة ومكثت هذه الأسرة في مدينة النهود فترة طويلة من الزمن إلى أن وافت المنية والد الشاعر بعد ذلك رجعت الأسرة مرة أخرى إلى جزيرة (أرتولي) واستقرت بها.

ينتمي الشاعر لأسرة عرف عنها اهتمامها بالشعر وتأليفه ، وكان الجد يقرض الشعر وكان شغوفاً بقراءته ، والأخ الشاعر الحسين الحسن[٣] ، وابن عم الشاعر عوض أحمد الحسين[٤] ، والعمة زينب محمد أحمد تكتب الشعر ، عرفت هذه الأسرة في تلك الفترة باهتمامها الكبير بالشعر.[٥]

---

١ قصائد من السودان : جيلي عبد الرحمن وتاج السر ، بيروت ، دار الجيل ، طبعة أولى ١٩٩١م ، ص ١٠.

٢ حبيبة عمري : الحسين الحسن ، الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، طبعة أولى ٢٠٠٤م ، ص ٥.

٣ شقيق الشاعر : له ديوان شعر (حبيبة عمري).

٤ ابن عم الشاعر : له ديوان شعر (مشاعر إنسان).

٥ من لقاء عمر الجزلي بالشاعر ، على الفضائية السودانية ، برنامج أسماء في حياتنا ، الحلقة الأولى بتاريخ ٢٠٠٥/٧/٥م.

أما أسرة الشاعر الصغيرة فتتكون من زوجته (إلبينا)[1] روسية الأصل وكانت تدرس وتعمل معه في معهد الكاتب (ماكسيم جوركي) متأثرة بالآداب والثقافة الروسية ، وهي مترجمة كان لها أثر في تشجيعه. تزوج بها ومكثا في روسيا فترة من الزمن ، ثم عادات إلى مصر واستقرا بها ، ورزقا ابناً واختارا له اسم (الحسن)[2] ، واستقرا فترة طويلة في مصر تقارب الخمسة عشرة سنة ثم رجعا إلى السودان واستقرا به حتى هذا العام ٢٠٠٩م.

نشأ الشاعر في بيئة صوفية كان لها الأثر الواضح في حياته ، وكان في طفولته يختلف عن أقرانه إذ لم يكن يحب الاختلاط بهم كثيراً ، أو اللعب معهم كان يميل للقراءة كثيراً ويقرأ كل ما يقع بين يديه ، ويميل بطبعه إلى الهدوء ويهتم بالأسرة ويقدرها ، وكان يرى في والده مثالاً للكفاح والعطاء ، حتى إنه قرر أن يعمل ليساعد والده في تكاليف الحياة إلا أن والده رفض.

أثرت على نشأة الشاعر الحياة القروية. نجد ذلك فيما صوره لنا محمد مصطفى هدارة في حديثه عن ذكريات الشاعر عن البيئة التي عاش فيها بكل أبعادها وهو لا يريد من وصف البيئة صورها الجامدة التي لا تمثل بيئة الشاعر. بل أراد الصورة الحية التي تنبثق من ضمير المجتمع ، ويعرض فيها مشاكل حيوية ترتبط بوجود الناس أنفسهم وتتمثل في ندرة المياه في فصل الصيف ، وعدم المرافق الصحية وغيرها من المشاكل التي تواجه أهل القرية، كان يحس في نفسه التي كانت تفيض بالألم والكآبة أزاء الطبيعة والتفكير في نفسه والحياة الإنسانية وتعاسة البشرية ذلك لأنه صاحب نفس حساسة وشعور مرهف.[3]

---

١ زوجته (إلبينا): أستاذة بجامعة الخرطوم ، كلية الآداب ، قسم اللغات ، تدرس اللغة الروسية وآدابها.

٢ ابن الشاعر الحسن: درس في جامعة عين شمس بمصر ، تخرج في كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية ، وهو حالياً أستاذ بالمملكة العربية السعودية ، متزوج وله ثلاثة أولاد.

٣ تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان ، محمد مصطفى هدارة، بيروت، دار الثقافة، ط١ ١٩٩٠م، ص ٤١٥.

ويقول إبراهيم شعلان: "إنني أذكر زمناً صعباً عاشه تاج السر وصديقه جيلي عبد الرحمن ... كانا يعانيان شظفاً إلىدرجة أن ما يسد الرمق كان صعب المنال أي أنهما كانا يجوعان أحياناً فلا يجدان شيئاً يأكلانه."[1]

إن العمق النفسي والروحي للإنسان السوداني الضاربة بجذوره في قدم التاريخ الذي تعود على العيش في كل الظروف الصعبة ولكن لم يرض بذلك الوضع بل عمل على دفعه عن نفسه وعن الآخرين.

تلك الومضة تجسدت في إبداع شاعرنا الذي جاء من جزيرة (أرتولي) وكأنه امتزج من تربة هذا الوطن ، من طمي نيله وسمرة أرضه الخضراء.[2]

في تلك الجزيرة كان مهد الشاعر التي يجري فيها النيل وأحاط بها النخيل ، وأطربها صوت السواقي والطيور. في هذه الواحة الجميلة الغنية بضروب الشعر أشرب شاعرنا بعض معانيها.

نشأ الشاعر في أسرة امتاز أفرادها بالذكاء وتلقوا قسطاً وافراً من التعليم ، ولعل الروابط الاجتماعية الأسرية القوية قد أثرت في شخصية الشاعر فهو ليس انطوائياً أو منزوياً ، وذلك لأنه كان دائماً يتفقد أحوال أهله وأقاربه فلم تقف الظروف الصعبة عائقاً في خدمة أهله.

ارتحل مع أسرته إلى منطقة كردفان حيث عمل الوالد بالتجارة في مدينة النهود ، التي كان لها أثر كبير في وجدانه ، وأفرد لها مساحة واسعة في شعره فقد أعجب بهذه المنطقة الفاتنة التي حباها المولى تعالى بطبيعة ساحرة وأفق رحيب ، ومناخ معتدل ، وما تحتويه من عوالم مختلفة من حيوانات ونباتات وجمادات كلها في غاية الجمال والروعة ، هذه المنطقة كان لها كبير الأثر في إثراء إحساسه وإذكاء عاطفته وشحذ وجدانه ، وانطلاق خياله ، فهذه الأرض تكسوها الخضرة وتناسب المياه في فترة الخريف على أرضها.

---

١ جيلي عبد الرحمن : شاعر الوقت في سياق آخر ، الياس فتح الرحمن وحيدر إبراهيم، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١م ، ص ٢٧١.

٢ ديوان قصائد من السودان: جيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م، ص ١٠.

ثم ارتحل إلى مدينة عطبرة التي توجد فيها ورش السكك الحديدية التي يشتغل فيها آلاف من العمال من مختلف الأجناس والثقافات والبلـــدان. ولكـــن عطبرة ليست إلا أولى رحلات تاج السر وهي نقطة البدء من السودان ليرتبط بالعالم كله.[1]

اهتم والده بالعلم ، ووجهه إلى جانب إخوته إليه ، ولم تقف الظـــروف الاقتصادية حائلاً دون تحقيق رغبة الوالد ، الذي تعهد أبناءه بالرعاية ، وعمل على تنمية مواهبهم ، وحفز قدراتهم.

١ ديوان قصائد من السودان: جيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن ، ص ١٥.

المبحث الثالث

التعليم وعمله وآثاره الأدبية

كان بداية تعليم الشاعر دخوله الخلوة على يد عمه الشيخ الأمين الحسين ، ثم انتقل بعد فترة وجيزة من دخوله الخلوة إلى مرحلة الكتاب والإبتدائية بمدرسة النهود الشرقية من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٤٩ والتي كانت توجد بها مكتبة يقرأ فيها كتب كامل الكيلاني وشوقي ضيف وغيرهما من رواد العصر الحديث ثم المعهد العلمي الديني بمدينة النهود ، وكان من ضمن البعثة التي أرسلت إلى مصر للدراسة بالأزهر الشريف.

التحق بالأزهر الشريف عام ١٩٥٦م ، كان شغوفاً بالاطلاع على الكتب والمجلات ، ولوعاً بالقراءة في دار الكتب بمصر ، ويحضر الندوات الشعرية والنثرية والفكرية. حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٦٠م ، وفي نفس الوقت حصل على شهادةة اللغة العربية العالمية بالأزهر ، شارك الشاعر خلال دراسته في النشاط الطلابي الأدبي والفني والسياسي. كان يقرأ الكتب العربية والأجنبية وتعلق بقراءة الشعر ، وأخذ يقرأ لفحول الشعراء في العصر الجاهلي ، والعصر العباسي ، وشعراء العصر الحديث وكان يلتقي برفاق دربه من أمثال: جيلي عبد الرحمن ، وعلي الملك ، وصلاح أحمد إبراهيم ، ووديع السنوسي ، وغيرهم من الأدباء الشبان الذين أصبحت لهم مكانة مرموقة في الحياة الثقافية والأدبية في السودان والوطن العربي.

سافر إلى الاتحاد السوفييتي ، والتحق عام ١٩٦٠م بجامعة موسكو لدراسة اللغات السوفييتية ودرس اللغة الروسية. التحق بمعهد الكاتب الروسي (ماكسيم جوركي) ، الذي حصل فيه على شهادته التي تعادل الماجستير عام ١٩٦٢م ، عمل فترة من الزمن أستاذاً للغة العربية بمعهد العلاقات الدولية العربية بموسكو ، وحصل هناك على درجة الدكتوراه عام ١٩٧٠م.

بجانب دراسته للغة الروسية درس اللغة الانجليزية والفرنسية والأسبانية ، كان متأثراً بالفلاسفة أمثال أرسطو ، وسقراط ، وأفلاطون ، وقد كتب عنهم مقالات.

مجال عمله:

عمل أستاذاً بكلية التربية بجامعة عدن من ١٩٧٤-١٩٧٦م بجمهورية اليمن بالقسم الجنوبي، ثم عمل أستاذاً للغة العربية بمعهد العلاقات الدولية بموسكو، وباللجنة الوطنية لليونسكو من ١٩٧٦-١٩٨٥م ثم عاد إلي السودان وعمل بوزارة التعليم والبحث العلمي حتى عام ١٩٩٤م، منح إجازته النهائية لبلوغه سن المعاش، وكان له مقال ثابت في جريدتي الأيام والصحافة ، وكانت كتاباته فيهما عن الثقافة والأدب ، بعنوان تاريخ الحركة الأدبية السودانية بمصر. كما كانت تنشر أشعاره في الصحف والمجلات المصرية والعربية نذكر منها مجلة "الآداب البيروتية" وجريدة "المساء المصرية" وجريدة "الصحافة السودانية" وغيرها من المجلات.

ترجم كتاباً من الروسية إلى العربية (قلعة بريست) للكاتب الروسي (سرجي سمرنوف) ويدور موضوع الكتاب عن أحداث الحرب العالمية الثانية من دار التقدم بموسكو ، كما ترجم رواية (الديك) من الروسية إلى العربية ، وهي رواية للأطفال ، كما ترجم من أعماله الشعرية والأدبية إلى اللغات الروسية والإنجليزية والفرنسية.

شارك الشاعر بصورة فعالة في أجهزة الإعلام السودانية والمصرية المسموعة والمرئية ، وقد ذاعت أعماله الشعرية والأدبية عبرها.

كما كانت له بحوث في مجال اللغة العربية في قسم الدراسات العليا بجامعة الخرطوم وقدم من خلالها العديد من المقالات والبحوث.

تعاون الشاعر مع جامعة أم درمان الأهلية حيث قام بتدريس اللغة العربية بكلية الآداب قسم اللغة العربية ، وكان رئيس القسم ، وتخرج على يديه نخبة من الطلاب ، وكان الباحث أحد هؤلاء الطلاب سنة ٢٠٠٥م.

هذه نبذة موجزة عن الشاعر تاج السر الحسن ، الذي ينتمي إلى جيل المجددين من الشعراء الذين خرجوا من خنادق الحرب العالمية الثانية ، كما عبر عنهم الناقد والأديب علي المك. الشعراء الذين فجروا الوعي القومي المنادي بالحرية والاستقلال والكفاح المشترك مع شعب مصر الشقيق وكل الشعوب العربية والأفريقية ، ورفع الظلم عن الشعوب في جميع أنحاء العالم. جيل الوجدان والثورة وهم : جيلي عبد الرحمن ، وتاج السر الحسن ، وحسن وديع السنوسي ، وصلاح أحمد إبراهيم ، ومبارك حسن خليفة ، والحسين الحسن وغيرهم من الشعراء المناضلين الذين جعلوا كل شغلهم وهمهم رفع الظلم عن الشعوب الضعيفة وتحريرها من الإستعمار ونيل استقلالها من الشعوب الظالمة المستبدة.

إن تاج السر الحسن كان أكثر ارتباطاً بالتربية السودانية، درج عليها وعاش بين أهلها وانطبعت صورها في نفس الشاعر.

ونكتفي في هذا المبحث بما قاله جيلي عبد الرحمن عن شاعرنا في اللقاء الذي أجري معه في إحدى المجلات المصرية عندما سأل عن تاج السر الحسن فقال: "وجود الشاعر السوداني المبدع تاج السر الحسن أحد الملامح الهامة التي أثرت في حركة الشعر المصري وقتئذ ، وقد أغمط حقه أيضاً. فحين يذكر حجازي أو عبد الصبور ينبغي أن يسبقهما تاج السر أحد نجوم الشعر المتلألئ الجذاب الذي كان يهز المنابر الشعرية ، لقد كتبنا الشعر في وقت واحد تقريباً ... وإن كان قد سبقني إلى التعريف بالساحة صحفاً وأندية."[١]

١ جيلي عبد الرحمن : شاعر الوقت في سياق آخر ، الياس فتح الرحمن وحيدر إبراهيم ، بيروت ، دار الجيل ، طبعة أولى ، ١٩٩١ ، ص ١٤٧.

آثاره الأدبية:

أولاً : الدواوين الشعرية:

١. قصائد من السودان ، تاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن ، بيروت دار الجيل ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.
٢. ديوان القلب الأخضر ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٣. قصيدتان لفلسطين ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٤. ديوان النخلة تسأل أين الناس ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.
٥. الأتون والنبع ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

ثانياً : الكتب الأدبية:

١. الإبتداعية في الشعر العربي الحديث ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.
٢. بين الأدب والسياسة ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م.
٣. قضايا جمالية وإنسانية ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ، ١٩٩١م.
٤. أثر السياسة الغربية على السياسة الشرقية ، تاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩٢م.

الفصل الثاني

قضايا المضمون في شعر تاج السر الحسن

المبحث الأول : القضايا الاجتماعية

المبحث الثاني: القضايا السياسية

المبحث الثالث: القضايا الفكرية

المبحث الأول

القضايا الاجتماعية

كانت لنشأة الشاعر بين مظاهر الطبيعة الوادعة وعذابات الإنسان البسيط المحروم في القرية ، أثر كبير في تجربته الشعرية ، إذ كان الريف أحد المحاور التي دار حولها شعره بصفة عامة فضلاً عن مشاهد الطبيعة الأنيقة التي استقى منها صوره.

ثم كانت المرحلة الثانية وهي حياته في "الغربة" حيث حرم من بساطة الإنسان الريفي ثم يخرج في المرحلة الثالثة إلى القضايا العامة التي تناول فيها قضايا القارة السمراء فبدأ بالتفصيل.

لما كان الإنسان بطبيعته كائناً إجتماعياً دائم النزعة إلى إيجاد صلة حميمة بينه وبين مجتمعه ، كان الشعراء أكثر الناس إحساساً بقضايا مجتمعه لذلك اتجه تاج السر بأشعاره إلى قضايا مجتمعه يقول في قصيدته "أبي":

وأنت تهذي يا أبي وفي عينك ألف صوره
الكاهن الذي يعيش كالأسطوره
والفقر في عيون الناس في المدائن
والعانسات والحقول والمساكن
يضج في أحنائها الزحام
وضحكات الأصدقاء وهي ترتمي بلا كلام
كأنها خناجر محنية
تغرس في قلبك عبر عتمة الظلام
والآن يا أبي تطل في عيونك الحقيقه
الكاهن الحقير كفه الرقيقه
يسيل منها الدم على أعناق شعبنا يصعد القمم
والأصدقاء من تنكروا إليك

من حوله ينغمون طيب الكلام[1]

ولكن إذا كان تاج السر يؤمن بالتزام الأديب بخدمة قضايا أمته ومجتمعه ، فليس هذا في حد ذاته شيئاً جديداً على الشاعر السوداني ، فقد وجدنا الشعراء المقلدين أنفسهم لا ينظرون إلى الشعر إلا من حيث إنه أداة لتحقيق أهداف وطنية واجتماعية هي إحياء الشعب وبعثه وحثه على الانتفاض[2] يجسد ذلك في قصيدته "جزيرة شمالية"حيث يقول واصفاً الجزيرة:

قريتنا جزيرة تسبح في المياه

سفينة صغيرة مخضرة الزروع

ضفائر الحنطة في أكتافها تضوع

أبناء عمتي وخالتي السلام

ما الذي أملك غير كلمة السلام

غير حنين في الضلوع

لا يحده الكلام[3]

إن المرء ليجد في ذكرياته الماضية أنه استطاع أن يبرهن لكثير من قضايا الحياة التي يصادفها ، وأن من يلقي نظرة على ملخص تاريخ الأمم يرى أن الشعور بالقومية هو حجر الزاوية لكل مجد قديماً كان أو حديثاً لأنه يبعث الشعوب من رقدتها ويحفزها إلى جليل الأعمال.

وهذه بداية تحرر الأدباء من الوهم الذي طال انخداعهم به ، أنهم يستطيعون أن ينالوا لأنفسهم حرية حقيقية ووطنهم محروم منها. هم قد بدوا

---

١ ديوان القلب الاخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١١٧.

٢ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالمية ، ١٩٧٥م ، ص ١١٥.

٣ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م ، ص ٤.

الآن يدركون أن لا حرية للفرد إلا بتحرير المجتمع كلـــه مـــن كافـــة قيـــوده وأغلاله.[1] ويقول في قصيدته (عودة ذي يزن):

وفي القديم

سمعت أن أرضك الشماء

لا تنام

أن الرجال شيدوا في أرضك السلام

والنيل ثار

لكنهم أقاموا في ضفافك الأسوار

كانوا كبحرٍ أسمرٍ يصادم التيار

ما استسلموا ، ما فل من ساعدهم دمار

كنت وأطفال الجزيرة الصغار

نسبح لا نهاب موجه الهدار

ولا نخاف دواماته الكبار[2]

أنشودة حلوة الوقع على الأذن ، محببة يحسها كل إنسان محب للحريـــة والكرامة وتحرير الإنسان ، وتأخذ كلماته طريقها إلى القلوب مع كل ما يميزها من وضوح ، وذلك لأن الشاعر يصور لنا الذين يقومون على حماية الجزيـــرة من الخطر الذي يستهدفها ، كما يصور لنا مرح الأطفال حين يخرجـــون إلـــى ضفاف النيل ليمارسوا بعض العادات مثل صيد الأسماك والسباحة وغيرها من الممارسات التي يصورها الشاعر الذي يمتاز بالحس المرهف الوجدان حيـــث يقول:

هيا بنا

هيا بنا

---

١ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية ١٩٥٧م، ص ١١٠.

٢ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ٦.

من يسبق الجميع

وهكذا نكوم العيدان للوقود

فالنيل بالخيرات فاض للجزيرة

وأهلنا ينتظرون ساعة الظهيرة[1]

نجد شعره مرآة عاكسة لنفسيته المتجانسة والمتجاوبة مع عناصر الحياة وهو إحساس صادق ومعبر في كلمات بسيطة ويواصل في وصف المناظر الجميلة وهو يصف لنا الحياة في الجزيرة حيث يقول:

وفي ذات مرة صحوت

والنخيل

فروعه الخضراء

غنى فوقها هديل

قمرية أيقظت الصباح في الحقول

قمرية أطربت الشتول

حتى عصافير الحقول

غردت على السعف

وطائر الجنة فوق أعيني وقف

ونخلتي ، لما رأتني كنت في شغف

رمت عليّ لؤلؤ الثمار لا الصدف[2]

وقد وصفها وصفاً دقيقاً ، وذلك لأنه يمتلك خيالاً واسعاً ومن إبداع صوره تلك التي يصور فيها الجزيرة التي تغلغلت في حنياه منذ طفولته وهو تصوير رائع وجميل نلمس فيه خياله الخلاق ،ونحس بمدى أهمية الطبيعة في حياة الإنسان ، وكذلك تنشأ عاطفة حب الطبيعة في النفس من طول تأمل المرء في مظاهرها والتماس الراحة عندها والتعلق بها يوماً بعد يوم فلا تلبث أن

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، ص ٧.

٢ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، ص ٧ ، ٨.

تتولد في نفس المرء الإلفة ويشعر نحوها بالحب. انظر إلى قصيدة الشاعر "وادي النهود" التي يقول فيها:

سافرت فِي أنحائِها وحستُ في الديارْ

درستُ فِي الكتاب بين إخوةٍ صغارْ

فبلدَتِي النُهودْ

هَذَا المَدَى الذي يفيضُ بالوجُودْ

هَذَا السنا المتألقُ الممتلئُ العنُقودْ

هذِه الرُبا الحْمَراء

هذي الصخورُ الزُرق كم تميدُ كبريَاء

هَذَا التبلدي شامخاً يعانقُ السّماء

مَدِينتي النُهودْ

سَحَائبُ بنفسجيةٌ بهَا السّماء تَجُودْ

أرضُ موشاةٌ بهَا تفيضُ خضرةً وجُودَ[1]

لقد أبدع هذا الشاعر شعراً جميلاً تناول فيه خفقات الوجدان شعراً يصف الطبيعة الساحرة ، ويصور حالات نفسه وحالات النفس العامة ، شعراً يتناول الموضوعات المعنوية ، ويحلل هذه الموضوعات تحليلاً عميقاً ودقيقاً.

أما إذا كان الواقع قبيحاً فلا فائدة من إغماض العين عنه والانسحاب إلى عوالم مثالية جميلة ينسجها وهم الشاعر ، بل لا مفر من مواجهته في شجاعة وتسجيله في أمانة مهما يكن هذا واجباً ثقيلاً مراً ، وذلك واجب الوطنية ، والإنسانية ، والرجولة بل هو واجب الإخلاص الفني والصدق الأدبي.[2] انظر إلى قول الشاعر الذي يحرك به الشعور إلى الدفاع عن حياض الوطن وينشد الهمة ويبعث الأمل حيث يقول:

أخي دقيس

---

١ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، ص ٧٧.

٢ الاتجاهات الشعرية في السودان : محمد النويهي ، ص ١٠٠.

هلا ذكرت الأمس بالكتاب

والحرب كان ظلها يغادر الأبواب

كنا نقود جيشاً يعبر الصحراء

جيشاً يقاتل النازية الحمقاء

وقد هزمنا صانعي الدمار

الحرب ولت لم تعد تشارف الديار

لكن بنادق الفروع في أكفنا تلوح

الشوك كالسلاح كم يفتح الجروح

التوم لن يموت

والحرب ولت لم تعد تهدم البيوت[1]

فإذا كانت للشاعر جولة في وجه من وجوه الإصلاح أو ناحية من نواحي الخير ، وإذا مضت في فئة شعلة تنير السبل الحالكة أو علت صرخة تثير العزائم الخامدة أو سرت نفحة تحيي الرمم البالية فقد أدى الرسالة وهي هدفه الأقصى وفيها عوض عن كل فائت لمن عشق فنه أو أخلص لمثله الأعلى.[2] ويبدو أن الشاعر كانت له جولات في إصلاح مجتمعه. انظر إلى قوله:

ما أكثر الإخوان حين تعدهم

ما أكثر الإخوان

لكنهم في النائبات يختفون كالجرذان

على وجوههم يعلقون بسمة صفراء

حياتنا من غير حب يا صديقتي جرداء

إيماننا بقدرة البشر

---

١ النقد الأدبي الحديث في العراق ، أحمد مطلوب ، بيروت دار الجيل ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م ، ص ٢٦٩.

٢ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، ص ٨٤ ، ٨٥.

بأن يشيدوا في الحياة السلم والظفر

ما زال يا صديقتي يجيش في صدورنا

إيماننا بقدرة البشر

فليمضغ الجرذان عشبه القديم

وليختفٍ إذا بدا الخطر[1]

والعمل الفني أو الأدبي إذا قفز إلى الحقائق العقلية وتجاهل صور الحياة التي تكون معرفتنا الحسية بها ، الطريق الوحيد إلى هذه الحقائق ، لم يغتــرف من الطبيعة الحية الذاخرة بالتجارب وبالحركة وبالأشخاص ، فإنه يكون عملاً فنياً من جانب واحد ، ويغلب عليه الطابع التجريدي وتتأثر صياغته بــذلك لأن الصياغة المتحركة لن تبعث فيه الحركة المفقودة في المحتوى.[2] انظــر إلــى تصوير الشاعر للريف الذي تركه أهله وذهبوا إلى المدن ، وهو يتحدث بلسان حال النخيل حيث يقول:

صاح مغني الشعب ونادى

أين سواقينا الخضراء

غابت فوق ضبابٍ أسود

غطى سلم الصحراء

يدعى النفط

أتانا النفط ولكن

نحن ذهبنا نبحث عنه هناك

تركنا الريف وراء الظهر

وهمس النفط يناجي النهر

صدأ الفأس

---

١ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، ص ٨٤ ، ٨٥.

٢ ديوان قصائد من السودان : جيلي عبد الرحمن وتاج السر ، دار الجيل ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٩١م ، ص ١٩ – ٢٠.

وهن البأس

نضب الكأس

القرية أضحت مهجوره

والنخلة تسأل أين الناس

يا مدن السودان الكبرى

أين الناس

وترجع صحراء العتمور المحروره

صدى الأسئلة المأسوره

أين الناس[1]

نجد أن الشاعر تاج السر كان لصيقاً بمجتمعه الذي يعيش فيه بكل تقاليده ، ويحب حياة البساطة التي يسودها الهدوء النفسي والروحي والعقلي ، ويحب الناس البسطاء ، الضعفاء الذين يكافحون في الحقول من أجل الرزق ، لذلك فهو محبوب عند العامة والخاصة ، مما جعل شعره خالياً من الهجاء الفردي والخصومات الفردية فلم يظهر فيه إلا الهجاء السياسي والاجتماعي المرتبطة بالأهداف الإنسانية ، وكذلك نجده يقول:

الذكريات لا تشترى

وليست سلعةً تباع

يا أيها الظلال في قلبي

بلونها الداكن

يا توهج الشعاع

وتلكم الكثبان في ضفاف النيل

ذهباً في أرضنا مشاع

يا سعف النخيل

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ١١٢ ، ١١٣.

يا عصافير الحقول

يا تكسر الضوء ، على الجداول المنسابة[1]

فالشاعر قوي الارتباط بمجتمعه الذي تسوده القيم الإنسانية الرفيعة ، ولذلك نجده كان محباً لحياة الريف التي تقوم على حب حرف الزراعة والرعي وصيد الأسماك وغيرها من العادات أو مصادر الرزق ، وكان الشاعر كثير التأمل في الطبيعة وفي من حوله. انظر إلى قوله:

ها أنت يا جزيرتي

تحيطك الجزائر

يفيض من طنبورك الغناء

حين يهدأ المساء

وتتجلى نقاوة النسيم

تحت دومة تغازل النسيم

أو تسامر

هنا بيات شيخنا على الكثيب

وهذه راياته بيضاء

كم تثير فينا روعة المشاعر

خفاقةً بفعل الريح

تحمل الفوح الذي يفيض من ضفاف النيل

من أسماكه وحوشه

ومن أشداء حقلنا المجاور[2]

إن الخيال الشعري ما يتخيله الشاعر من وصف الحياة وشرح عواطف النفس وحالاتها ، وإن التشبيهات لا تراد لذاتها وإنما تراد لشرح عاطفة أو توضيح حالة أو بيان حقيقة ، ونجد أن الشاعر يصف لنا الجزيرة ويصور

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م ، ص ٨٨.
٢ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ٨٩ – ٩٠.

طبيعتها الساحرة الجميلة ، وهو وصف صادق نابع عن نفس مرهفة ونلاحظ مدى قدرة الشاعر على التعبير بما في داخل النفس بكلمات سلسلة وسهلة ويبدو أن التزام الشاعر بقضايا مجتمعه ملكت عليه كيانه وشعره. انظر إلى قوله وهو يناجي القرية حيث يقول:

أين فتيانك يا قريتنا

أتراهم غرقوا خلف السراب

أم تراهم يذرفون الدمع مثلي

خلف جدرانٍ من الصمت ، العذاب

أين أطفالك يا قريتنا

بعد أن ظللهم برد السحاب

وعلى الغدران يلهو جمعهم

يبنون الرمل دوراً وقباب

طائر السمبر يا لالوبتي

أتراه حمل العش وغاب

لبلاد تهطل الأمطار فيها

ويزول الحزن

يذوي الإكتئاب[1]

يتضح الجانب الإنساني في شعر شاعرنا وضوحاً لا تخطئه العين فبالرغم من معاناة الحزن والألم إلا أنه لم يستسلم للنزعة التشاؤمية ولم يدعها تسود شعره ، بل كان كثير التغني بالتفاؤل. انظر إلى قوله:

مركب بقلب النهر

قادم إليك يا جزيرتي

وفيه كل شعبك المهاجر

---

١ ديوان الأتون والنبع ، ص ٥٨ – ٥٩،

بشوقه الذي لا يعرف الحدود

عشقه الذي ليس له بداية أو آخر

بكل ما فيه من الأحزان للفراق

كل ما بقلبه من المآثر[1]

وهنا يصور لنا الشاعر حال الجزيرة بعد رجوع أهلها المهاجرين إليها وهم يتقطرون شوقاً لها ، على الرغم من حزنهم وقلة حيلتهم من الفراق عنها.

والشاعر هو من يحس بمعاناة الناس ، فهو يقدم النصائح ويلفت الأنظار إلى الخطر الذي يتربص بهم انظر إلى قول الشاعر:

متى ستأتون

لقتل الرجال ، وسبي النساء

وحرق السفائن

والهدم إن شئتم

للقرى والمنازل

متى؟ نحن في الانتظار

***

أخيراً عرفت

لمن تصنعون الصواريخ

بعد القرون الثلاث ... وأكثر

يا لها من مهازل[2]

فهو يكشف ما في الوضع الحقيقي في مجتمعه من مهازل ، وهي ضياع القيم السامية لدى كثير من رجالات هذه الفترة ورجال الفكر في دول العالم المتقدم وضياع الأمن والأمان في الدول الفقيرة من الإصلاح والرفاهية والتقدم.

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ٩٠ – ٩١.

٢ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ٦٦.

ويتضح أن الشاعر قد وطن نفسه على كفاح طويل مرير ، هجر من أجله كل متعة شخصية يألفها من كان في مثل صباه ، واتجه إلى قضايا مجتمعه الذي يعج بالفقر والجهل ، انظر إلى قوله الذي يمجد فيه الفقراء الشرفاء ويذم الكاهن الذي استغل جهل المجتمع حين يقول:

وأنت يا أبي هناك تهذي في السرير
لم يبق غير الحاج يا أبي صديقك الفقير
محمد الخليفة الذي يفيض بالشعور
أواه ما أروع هؤلاء في الحياة
الفقراء الشرفاء في الحياة
وأنت تهذي يا أبي وفي عينيك ألف صوره
الكاهن الذي يعيش كالأسطوره
والفقر في عيون الناس في المدائن
والعانسات والحقول والمساكن
يضج في أحنائها الزحام[1]

ولا يكف تاج السر عن استنهاض همة شعبه، وهو يتحدث عن نضال والده ، ويلوم مواطنيه لوماً عنيفاً على استكانتهم ولتركهم القيم الإنسانية السامية في الدفاع عن الفقراء وإقبالهم على طيب العيش على حساب جهل المجتمع حين يقول:

تحدثوا عنك حديثاً باهت الصور
وضحكوا ولم يزل حانوتك القديم
حيطانه تظلل الشجر
رفوفه العنكبوت في أحنائها يقيم
أبي الحميم

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١١٦ ، ١١٧.

ما كنت يوماً تاجراً لكنها الحياة

تسوقنا إلى نهاية المأساة

الخبز لي أو لك

فإن رفضت قتلي إنني سأقتلك[1]

وقد كان الشاعر من طلائع النضال في مجتمعه الذي خاضه من أجل بقاء القيم الإنسانية الفاضلة لذلك نحن أحوج ما نكون إلى الدمج بين الصور الحية والقيم الإنسانية المستمدة من مجموع هذه الصور.

الغربة:

ولأن السوداني محب للحرية ومعتز بنفسه وببلاده فما يكاد الرجل يغترب عن السودان أو ينتقل إلى مكان بعيد حتى يجيش عاطفة ، فهم أنطوائيون على أنفسهم وعلى تقاليدهم ، فإذا أطلوا على الحياة فبقدر ، أما حياتهم الحقيقية فهي داخل أنفسهم ، وإنك لتقابل الواحد منهم في أي مكان في العالم فلا تخطئك سودانيته لأنه يحمل بلاده معه.[2]

نجد إن أول إحساس بالغربة عند الشاعر كانت في مرحلة التفكير الصوفي حين كان يشعر بالغربة عن الكون جميعه لذلك يقول:

أي طين جبلت منذ ذراته وتغشيت في ردى ظلماته

كلما سمت في الحياة جمالا دنست حمأة الثرى آياته[3]

جاء الشاعر إلى مصر من أجل الدراسة ، ولكنه شعر بالغربة والحنين إلى السودان يجسد ذلك فيقول في قصيدته (عيد الغريب):

يا عيد لما جئت تلك البلاد قبلتها حتى الربى والوهاد

هل فرحت أمي بذاك المجئ أم نغصتها ذكريات البعاد

وإخواتي يا عيد هل عانقوا فرحة أضوائك عند الصباح

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١١٦.

٢ شعراء الوطنية في السودان ، صلاح الدين المليك ، ص ٨٣.

٣ ديوان قصائد من السودان : جيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن ، ص ١١.

أم ذكروني فبكى قلبهم لغربتي واستسلموا للنواح

يا عيد لو كنت أنا فرحة أو كنت فيضاً من كروم السرور

أو كنت عيداً مثلما أنت أو كنت ربيعاً ملء كوني زهور

لما بكت أمي ومن حولها يهلل العيد ويحيا المرح

وإخوتي ما ظل في وجههم هذا الأسى ما مات ومض الفرح[1]

فالشاعر هنا يصور حال العيد عند أهله وهو بعيد عنهم وهي صورة صادقة جميلة في بساطتها ، ولكن الشاعر رغم حزنه بسبب غربته ، فهو يتذكر وطنه المهجور وإخوته وأمه ويتساءل هل فرحوا بمقدم العيد أم ذكرني فبكى قلبهم لغربته ، ونحن نعرف أن الشاعر ما هاجر من وطنه إلا لسوء أحواله الاقتصادية والثقافية وما فرض عليه الاحتلال من ظلم مما اضطره إلى غربته الحزينة حين يقول:

والغربة الحمقاء هذي العجوز ترتع في الوادي وفي أرضنا

ساحرة تمتص معنى الحياة معنى بقائي في بلادنا أنا[2]

والإنسان بطبيعته ميال إلى ما يألفه ، فإذا غاب عنه افتقده وشعر بدافع قوي يدفعه إليه ، ومما يساعد على إثارة الحنين في نفوسهم أحوال لازمتهم في ديار لغربة ، وأكثر ما يحرك العواطف تلك الصور التي تظل عالقة في الذهن من أمثال الأشجار والهضاب والسواقي وغيرها مما يفتقد في بلد الغربة ، ولذلك ينبغي الإحساس بالشعر أولاً عن طريق الوجدان وليس عن طريق العقل ، وهذا لا ينفي دور العقل لكنه يؤكد أساس الموهبة ،وصدق الإحساس ومعاناة التجربة الشعرية معاناة حقيقية.[3] انظر إلى قول الشاعر وهو يردد في خاطره صور من ذكريات ماضية في بلده حيث يقول:

يا إخواني خلف امتداد الهضاب وخلف حيدوب وركب السحاب

---

١ ديوان قصائد من السودان ، جيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن ، ص ٧١.

٢ ديوان قصائد من السودان ، جيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن ، ص ٧١.

٣ أصول الشعر السوداني ، عبد الهادي الصديق ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، طبعة أولى ١٩٨٩م ، ص ١١٨.

وشجر اللالوب قد خيمت ظلالها فوق ظهور البيوت

ونيمتي ما زال إيناعها يملأ قلبي بغد لا يموت

محمداً ما زلت في كل حين أذكر ما أوصيتني من سنين

سيارة تقطع في سيرها غرفتنا في سرعة كالجنون

وقصة عن فارس ثائر يبحث عن كنز يعيد الحياة

وعن فتى عاش كولد النمير لا يرهب الظلم وفجر الطغاة[1]

ولكنه لا يستسلم لأساه ، ولا ينسيه حزنه الشخصي أن في الأرض كثير من أمثاله من المشردين ، فهو يبشر نفسه ولهم جميعاً بالمستقبل السعيد الذي لا يضطر فيه امرؤ إلى ترك وطنه والتغرب عن أهله حيث يقول:

محمداً إني سآتي غداً والعيد يأتي في خطى عودتي

والفجر يأتي والصباح الجديد وتضحك الأم لدى ضحكتي

وندفن الغربة لا لن تكون في الأرض هذه الغربة الشاحبة

نشعلها في النار. نلقي بها تذرها العاصفة الصاخبة[2]

ولكن الحنين إلى الوطن عند تاج السر جزء مهما في نفسيته ، وقد كان له أثره الكبر في شعره . فالاغتراب عن الوطن لم يضعف تعلقه به، بل زاده شوقاً ، وحين جلس في غربته يتذكر حياته الماضية ،تواردت على مخيلته صور تلك الحياة ومناظرها التي لم تضعف ولم تبهت على البعد ، بل لعلها ازدادت وضوحاً وتحدداً صار أقدر على فهمها وتقديرها ، وهكذا لم تقل الغربة من الطابع السوداني بل زادته بالمقارنة جلاءاً وتميزاً.[3] فلنستمع له وهو يفتخر بقوة وجبروت الشعب وهو عنه بعيد فيقول:

يا رفاقي صانعي المجد لشعبي

يا شموعاً ضوؤها الأخضر قلبي

---

١ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن ، ص ٧١ ، ٧٢.

٢ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن ، ص ٧٢.

٣ الاتجاهات الشعرية في السودان ، محمد النويهي ، ص ١٢٧.

إن سمعتم صوت تيوان البعيده

وهي تهدي الشعب أرواحاً عديده

أو رأيتم وجه جوده

أوجهاً عادت من السجن إلينا

أوجهاً صافحت الأيدي يدينا

أوجهاً عادت لتحيا في الجزيره

لم تمت أرواح جوده[1]

فالشاعر يؤكد حبه الشديد للوطن والوفاء للمجاهدين من أجله ، فالاغتراب يجعل الإنسان محباً لوطنه أكثر لأنه يحرم من الحرية. وأشعار الغربة في شعر تاج السر كثيرة تفيض بصور الحياة في السودان ، يقول في قصيدته (من ظلال الأمس):

أختاهُ مازالت بقايا الضحى في قريتي بين ظلال الغصون

ترعش في قلبي أيامنا خلف ظلام الأمس خلف السنين

والفصد في خديك لما يزل يومض في عيني وقلبي الحزين

والنيمة الخضراء في بيتنا وزهونا وإخوتي والحسين[2]

وبعد أن يذكر صوراً من قريته وذكرياته فيها يأتي بصورة مقابلة لحالة القرية الاجتماعية يقول:

أختاه إني سوف أحكي هنا قصة ماضينا كحلم جميل

أتذكرين الأمس أم أنه مات كظل في احتضار الأصيل

فلم تعودي تذكري عهدنا بين ربا الوادي الخصيب الظليل

أتذكرين الأمس أختاه أم أنا الذي عانيت وحدي الأفول[3]

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٠٩.
٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٥٦.
٣ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٥٦.

وقد حرم الشاعر من الوطن وأصبح محاصراً بقسوة حياة الغربة يجسد ذلك قوله:

الأمس في قلبي أسطورة خالدة من ذكرياتي الحسان

طفلان عاشا في ظلال المنى وقصة وارفة في الزمان

ما زلت فيها أستظل الرؤى وأرتوي فرحتها والأمان

ولم تزل أصداؤها في دمي في مسمعي ترن في كل آن[1]

وإحساس الغربة يلازم شاعرنا ويرافقه ولكنه إحساس ينبض باهتمام إنساني مرهف .. يقول:

قد أشرق الفجر على بيتنا وأشرقت شمس الخريف الرطيب

واستيقظ الطفلان في فرحة تعانق اليوم الرحيب الرحيب

كأنه بسمة أم حنون أو جدة تحكي حديثاً عجيب

وشجر اللالوب مستغرق في فرحة الفجر يحيي الدروب[2]

والغربة في شعر تاج السر عامل من أهم العوامل المؤثرة في شعره وهي تؤكد مدى ارتباط الشاعر بوطنه وما يدور فيه.

ولكن هذه الغربة لا بد أن تتلاشى ويرجع الشاعر إلى وطنه وأهله ... يقول:

ورجعا للبيت واستقبلا أمهما الكبرى وبعض الصغار

والآن ذلك اللهو خلف السنين أسطورة ماتت بظل الجدار

والذكريات الخضر يورقن في قلبي حنيناً مشعل الاخضرار[3]

وإن كان الشاعر هنا يقصد الطفلين إلا أنه يأمل هو كذلك أن يرجع إلى الوطن والأهل.

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٥٧.
٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٥٧.
٣ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٥٩.

ليست مأساة فقدان التعاصر إذن محصورة في غربة الأدباء والشـــعراء الذين سرق المستعمر لسانهم وهي مأساة عامة وإن تقاوتت مظاهرها وضوحاً وخفاءاً وتفاوت إحساس بها بين عمق الوعي وغفلة الوهم ، وإن كان لها القدح المعلى لأنها تسرق من الوطن مثقفيه الذين ينيرون الدروب له.[1]

أما في قصيدته (قصة لاجئ) التي يقول فيها:

وأنت في الحقل سعيد الرؤى

وسط الحقول الزرق وسط المياه

وسط السواقي وأغاني الحصاد

والطير يشدو ثغاء الشياه

وموكب الرعيان في أرغن الحانه

تنبض قلب الحياة[2]

نجد أن الشاعر يصف حال القرية التي ارتحل عنهـــا ، وهـــو يصـــور الطبيعة الجميلة ويعكس بساطة أهلها وهم يذهبون إلى الحقول للزراعة وهـــم يطربون لصوت الطيور ، وصوت السواقي ، وهي لمحات تكشف عن معدنـــه الصافي النقي ، وروحه الذكية التي تتعاطف مع الفقراء وتحس مـــا يحســـونه يقول:

تمضي إلى الحقل وفي مقلتيك

عزم ومعنى خالد في دماك

وقد تركت الكوخ في حصنه

صغارك الغر ودنيا صباك

وأنت فرحان تغني هنا

نشيدك الساذج يحدو خطاك

وزوجك البريئة الطاهرة

---

١ شعراء الوطنية في السودان ، صلاح الدين المليك ، ص ٢٠.

٢ ديوان قصائد من السودان ، جيلي عبد الرحمن ، تاج السر ، ص ٦٣.

تعدو ما يشتهيه هواك

تطل من كوتها ساهمة

تنظر للدرب عساها تراك[1]

وهو تصوير نابع من نفس شفافة. وهي مثال حي للعواطف الصـــادقة النبيلة التي تتبع من نفس شفافة.

وقد كان لمعاركه الصادقة النبيلة والوطنية الحقة التي خاضها في حياته الأدبية ، وما أحاط به من متاعب الغربة القاسية ، أثر في اتجاه أشعاره التـــي ظهرت في عالم قلق حائر يبحث فيه عن متنفس لذاته في مجتمـــع مضـــغوط ويظهر ذلك في قوله:

ها أنت مثلي في رحاب الحياة

تمشي ولا تدري إلا ما تسير

وأنت مثلي ثورة خامدة

تئن حيرى في رماد السنين

وأنت مثلي إشعاعة عاصفه

تخبو وتبدو في فمي والعيون

فأنت مني ونحن ترنيمة

ونحن صوت يتحدى القرون

لنسمع الخلود أنشودة

رائعة التصوير حَرَّى الرنين[2]

وهذه الغربة تتلاشى شيئاً فشيئاً ، وتتحول عنده إلى تأكيد مستمر لمعالم القومية السودانية ، على مجهود مباشر للقضاء على الغربة عند شعبه إن صح التعبير وتعريفه للناس ، وتمجيد صراعه ويقول:

وسوف نحدو ونغني الشعوب

---

١ ديوان قصائد من السودان ، جيلي عبد الرحمن ، تاج السر ، ص ٦٤.

٢ ديوان قصائد من السودان ، جيلي عبد الرحمن ، تاج السر ، ص ٦٧.

وسوف ينداح الدجى والظنون

ونبعث المستضعفين الألى

ماتوا هنا في ظلام القرون

وإبناك والأم غداً يبتسمون[1]

يعلق النويهي على "قصة لاجئ" ويقول : "يصور تاج السر مأساة الاعتداء الصهيوني ، وينجح في إثارة القارئ على وحشيته وتخريبه ، لا بالصياح والهتاف بل بإعطاء ثلاثة مناظر واقعية منفصلة. المنظر الأول يصور المزارع العربي وقد انطلق إلى حقله تحدوه العزيمة والأمل ، ليكد في خدمته ، والحقل قد ابيضت سنابله ببشائر الحصاد ، والطبيعة كلها سعيدة مرحة تتدفق حيوية وخصوبة. وقد ترك في كوخه صغاره الأبرياء وزوجته تعد له طعامه وتنتظر أوبته وفي المنظر الثاني تغير طائرات الأعداء على الكوخ الآمن فتدمره وتفتك بالأم والأطفال وتنشر الهلاك والخراب. وفي المنظر الثالث يعود الزارع إلى كوخه ليجده تراباً وأشلاءاً ممزقة. كل دنياه التي يعرفها ويحبها قد تحطمت ، فيهيم على وجهه حيران على غير هدى وإلى غير هدف وبلا أمل ولكن الشاعر يأبى أن يتركه في هذا اليأس. فيعزيه ويؤكد له أنهما معاً سيتغلبان على يأسهما وينهضان لبناء المستقبل السعيد ، ذلك أن الشاعر هو أيضاً غريب قد اضطر إلى هجر وطنه وذاق مرارة الغربة."[2]

تتضح القومية في قصائد عديدة من شعر تاج السر ، لا سيما تلك التي نظمها وهو في القاهرة بعيداً عن مجتمعه ومراتع صباه حيث ضاق بالغربة واشتاق إلى بلده شوقاً مبرحاً إلى بعض مظاهر الحياة وظواهر الطبيعة حنيناً دافقاً ويظهر ذلك في روعه وصفه لها. وذلك في قصيدته "الكوخ":

وهنا جدتي تسوق الأساطير

وتروى الخرافة السحريه

---

١ ديوان قصائد من السودان ، جيلي عبد الرحمن ، تاج السر ، ص ٦٧.

٢ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١٢٤.

وهي تلقى على السرير بقايا

جسد منهك ونفس هنية

وعلى وجهها الصغير خطوط

رسمتها يد الزمان الغوية

وعصاها العتيقة الملوية

وارتجاف الأنامل المحنيه[1]

نجد في هذه الأبيات فيضاً زاخراً من الوصف ، وهو وصف دقيق ، يستنتج من ذلك أن الشاعر له قدرة فائقة على التصوير ، وهو فن من فنون الشعر العربي الذي تطور مع تطور الشعر "وهو تصوير لما تقع عليه حواس الشاعر من طبيعة وغيرها. كما يرجح أن الشعر أكثره يرجع إلى الوصف. لذلك لا سبيل لحصره واستقصائه ، وأحسن الوصف ما نعت به الشئ حتى يكاد يمثله عياناً للسامع."[2]

يعود تاج السر إلى تلك الذكريات فيتذكر أمه ووالده يجيئ في الليل ، والأمسيات السعيدة التي قضوها معاً في حديث وسمر ، ويتذكر جدته تروي لهم الأساطير الشعبية وهي على إيجازها صورة دقيقة صادقة للجدة أو "الحبوبة" السودانية في رقدتها العتيقة على العنقريب.[3]

يقول الشاعر عن قصيدته "الكوخ" : "كنا مجموعة من الطلاب السودانيين الذين أدمنوا حضور الندوات ، كنت وزملائي الإخوان: أبو بكر خالد ، وجيلي عبد الرحمن ، ومصطفى الوراق وآخرين من أولئك الزملاء الأعزاء ، حيث إنهم أرسلوا ورقة إلى مقدم الندوة الأستاذ زكريا الحجاوي. وبعد فترة من الزمن فوجئت به يقول: بيننا في هذه الندوة شاعر سوداني هو تاج السر الحسن ، فليتفضل لمشاركتنا في هذه الندوة وصعقت بسماع هذا

---

١ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ٨٩.

٢ العمدة: ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، القاهرة، الناشر محمد امين، ط١، ١٩٠٧م، ص ٣٩٤.

٣ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١٢٧ – ١٢٨.

النداء ، وبالفعل تقدمت وألقيت قصيدتي "الكوخ" وعندما وصلت إلى الأبيات التالية:

وعصاها العتيقة الملوية

وارتجاف الأنامل المحنيه[1]

عندها لم أستطع مواصلة إلقاء القصيدة ، فقد كان التصفيق حاداً في القاعة ، وصرخ شيخ عجوز بين الحاضرين قائلاً: زي عصاتي دي يا ابني. لا أخفي عليكم بأن الاضطراب آل من نفسي وانتابني إحساس عميق بالفرح لما حدث .. وعند نهاية الندوة وقف أستاذنا محمد فريد أبو حديد ، وزير التربية في ذلك الوقت ، ليعلق على الندوة ... ودهشت عندما رأيت الأستاذ يعلق على قصيدة الكوخ دون القصائد الأخرى ، مشيداً بالواقعية ، وتحدث عن زيارته للسودان وتعرفه على أهله وطبيعته ، مؤكداً أن هذه القصيدة قد أحيت ذكرياته عن ذلك البلد الشقيق ، وقد كان لكلمات الأديب المصري الكبير أثرها الإيجابي العميق في النفس ولم يكتف الأستاذ زكريا الحجاوي بلقائه في ذلك اليوم ، فقد دعانا لزيارته والأخ جيلي عبد الرحمن ، والأخ محمد الفيتوري ، والرسام السوداني حسن حاكم ، وقد كان الأستاذ زكريا يشرف في ذلك الوقت على تحرير الصفحة الأدبية "بجريدة المصري" وبالفعل ذهبنا للقاء في دار الجريدة المصرية حيث كان بانتظارنا أحد المصورين الذي التقط لنا بعض الصور. قدم لنا الأستاذ بعض الأسئلة وأخذ نماذج من قصائدنا، وسرعان ما قرأنا على صفحات "جريدة المصري" مقالة الأستاذ زكريا الحجاوي الشهيرة والتي أثارت لقطاً كبيراً في الأوساط الأدبية المصرية في وقتها خصوصاً قد كانت تحمل عنواناً لم يخل من الاستفزاز النظيف. وكان على العنوان التالي: "ثلاثة شبان سود ينتزعون زعامة الشعر من البيض ويغرسون لواء الشعر القومي في السودان" ، وأذكر أن القصائد كانت "الكوخ" لي وقصيدة "صاي" لجيلي عبد

---

١ قصائد من السودان : جيلي عبد الرحمن وتاج السر ، دار الجيل ، بيروت ، طبعة أولى ١٩٩١م ، ص ٨٩.

الرحمن ، وقصيدة "أفريقيا" للفيتوري ، كما التقينا في ذلك المقهى بالناقد المصري الأستاذ أنور المعداوي الذي تحدث إلينا عن ما أسماه "بالكلمة الموهبة" وبالصديق الدكتور عبد المحسن طه بدر ، والأخ رجاء النقاش وشقيقه المرحوم وحيد النقاش.[1]

لم تفن شخصية تاج السر في غنائه للجماعة والتزامه الكامل بأهدافها لكنه استطاع أن يعبر عن النزعة الجماعية من خلال ذاتيته ومشاعره الخاصة، ولذلك نجده يصور البيئة السودانية في قصيدة "الكوخ" وهو تصوير حي نابض لبيئة شعبية تتضح بالحياة وتصويره لإحساسه بالغربة وهو إحساس صادق ، يقول:

ثم يمشي النعاس في الأهداب
في العيون البريئة المطمئنه
في الوجوه الحبيبة المستكنه
ويغطي السكون حتى الطريق الرحب
حتى ظلاله المرجحنه
وتنام الطيور في الأعشاش
حالمات صغارها في الدجنه
برؤى الفجر بابتسام الصباح[2]

الانتماء الأفريقي:

لم يكن شعراء السودان في أول الأمر ليأبهوا بأفريقيا وشؤونها وعلاقة بلادهم بها. وما كان ذلك استصغاراً لهذه العلاقة، ولا إنكاراً لمكانة أفريقيا والأفريقيين إنما شغلتهم مشكلاتهم الوطنية عن مشكلات الأمم الأخرى. كما أن وسائل الاتصال لم تكن سهلة ميسرة لهم ولا للأفريقيين في الأقطار

---

١ جريدة الصحافة السودانية : الخميس ١٩٧٧/٩/٢٢م ، عدد (٤٥) تحت عنوان: "من تاريخ الحركة الأدبية السودانية في مصر" بقلم الدكتور تاج السر الحسن.

٢ ديوان قصائد من السودان ، جيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن ، ص ٨٩ ، ٩٠.

الأفريقية حتى يتمكن الناس في بلد ما من الوصول إلى بلد آخر ،وحتى يتسنى للأفكار والأحاسيس الانتقال من بقعة إلى بقعة حيث تعيش فترة من الزمن ثم تتفاعل مع غيرها ويتولد عن ذلك رأي مشترك وأحاسيس متقاربة ، لقد تعذر على معظم بلدان أفريقيا معرفة الأحوال في جاراتها قريبة كانت أو بعيدة بسبب ذلك ، ولهذا لم تتمكن واحدة من مشاركة الأخرى في شئ أو معاونتها في الأمر . ولولا السيطرة الأجنبية التي انبسطت في جميع أنحاء القارة لكان الحال غير ما نصف ولكن بمجرد أن انتشر الوعي وبدأت سيطرة الأجانب في التقلص تغير الحال. ففي السودان أخذ الناس يعنون بأفريقيا مدركين أنهم ينتمون إليها بأسباب قوية وأن مقبل الأيام يقتضي تقوية الصلات القديمة وتنمية أخرى ينتفع بها أهل القارة.[1]

أما الشاعر تاج السر الحسن فقد وضح وجود العنصر الإفريقي في الأمة السودانية إذ قال في قصيدته "من البعيد":

لقد مرت مرور الضيف
رؤى أكتوبر كانت في دياري طيف
ووجهك يا قرشي
يا عربي
يا زنجي
يا نوبي
ومضة بارق من شعبنا الخلاق
وفيضاً من فؤاد النيل ، غطى الدار
حريقاً أشعل النيران في الأعشاب
وكسر ذوب الأطواق[2]

واستمر يوضح هذا العنصر وتفاعله مع العناصر الأخرى ويقول:

---

١ شعراء الوطنية في السودان : صلاح الدين المليك ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ، ص ٢٣٠.

٢ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ١٢ ، ١٣.

لقد مرت مرور الطيف

رؤى أكتوبر الحمراء كانت في دياري طيف

ولكن الدماء تسيل

وتصبغ أرجواناً وجه هذا النيل

دماء الزنج والعربان

ووجه النوبة الأسيان

كظل امرأة سوداء

غطى ساحة الصحراء[1]

لقد شعر تاج السر الحسن وأضرابه بواجبهم في مساعدة شعوب قارتهم لدحر الاستعمار ، ولذلك فهم يشحذون الكلمة شحذ السيوف المسلولة من أغمادها ، ثم يطلقونها في وجه أعدائهم ذخيرة مدمرة.[2]

وفي قصيدته "فلتحرر أنجولا" التي صور فيها مآسي تجارة الرقيق وبشاعة الاستعمار الأوربي بوجه عام. فقد أثار مشكلة التفرقة العنصرية وتغلغلها إلى جذورها حين وفد التجار البيض إلى أفريقية ليسوقوا العبيد منها وابتدأها ساخراً مفتخراً بأفريقيته. وكأنه يتحدث بلسان أحد أبناء أنجولا[3] فقال:

تحرقني الشمس

يقتلني في قبوه الأمس

ولدت في غابة لالوب

من الأسى قد نسجوا ثوبي

ومن عجيب الأمر أني

ككل الناس لي رجلان

---

١ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ١٥.

٢ الاتجاه الأفريقي في شعر السودان ، حسن صالح التوم ، الخرطوم سولو للطباعة والنشر ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٨٣.

٣ شعراء الوطنية في السودان ، صلاح الدين المليك ، ص ١٢٣.

ومثلهم أهوي عبير الزهور[1]

إن مشاركة الشعراء السودانيين في قضايا القارة السمراء من التحـــرر من الإستعمار والتضامن مع الشعوب الناهضة شكلت نبعاً دفاقاً وأمدتهم بالهام ويقول:

ومثلهم تطل في وجهي عينان نفاذتان

وأذني تهوى أغاني الطيور

ومن عجيب الأمر لوني عجيب

أسود كالليل الرهيب الرهيب

ولم أدر أن الدر

في مجاهل البئر العميق القرار

يغوص في الظلمة

لا يرى ولو أطل النهار[2]

نجد الشاعر تاج السر الحسن أثار قضية التفرقة العنصرية التي اكتوت بها الشعوب الأفريقية مما جعل شعاراتهم في الإعلام وقتها: "فلتسقط التفرقـــة العنصرية" "صوت واحد للإنسان الواحد" ، "تحيا الجمهورية الشـــعبية" كانـــت تكتب هذه الشعارات على ممرات الطرق الرئيسية وكان يكتبها أولئك النـــاس الذين يخوضون النضال ضد السلطات العنصرية من أجل الحرية.[3] لذلك كان تاج السر الحسن يقول:

أنا من أفريقيا بلدي تشويها نار الأصفاد

لكن يدي السوداوين تمردتا عبر الوادي

عانقتا "موسكو" والصين وكل بلاد الأمجاد

---

١ ديوان القلب الأخضر ، ص ٤٠.

٢ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، ص ٤٠-٤١.

٣ الاتجاه الأفريقي في شعر السودان ، حسن صالح التوم ، الخرطوم سولو للطباعة والنشر ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ١٤٢..

والتقتا بخيوط الشمس المسكوبة في الغرب الصادي[1]

إن تاج السر يبين عن ظهور أفريقيا في الشعر السوداني لأنـــه يشـــيد بأمجاد أفريقيا ويتحدث عن الظلم الذي حاق بأهلها ويدافع عن حقهم في العيش الكريم لأنهم بشر ينتمون إلى آدم كما تنتمي إليه أجناس العالم الأخرى. ويؤكد أن السودان يرتبط بأفريقيا باللون والجوار والمشاركة فـــي بعـــض الأحـــداث والمصائب.[2]

ويقول في قصيدته (القرن الأفريقي):

القرن الأفريقي اشتعلا

ظلاً ظلاً

جبلاً جبلاً

هذا البركان الخابي

آلاف سنين

****

القرن الأفريقي اشتعلا

كان جفافاً غطى الغابات

نفقت كل بهائمنا

ماتت

عند هدوء الشلالات

والجوع طغى يا فاتنتي

الجوع يزغرد في الساحات

من أقصى التشاد[3]

---

١ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، ص ٣٠ ، ٣١.

٢ شعراء الوطنية في السودان : صلاح الدين المليك ، ص ٢٤١.

٣ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ١١٧ – ١١٨.

فقد أصبحت أفريقية رمزاً لتمزقهم وضياعهم وغليانهم ، وقد أصبحت عند تاج السر معادلاً لمعاناته وقناعاً يستطيع من ورائه أن يصرخ ويثور يقول:

من آسيا إلى أوروبا

جبهة القتال

شمال أفريقيا وأثيوبيا

يحوطها الحريق

مات النساء والرجال

ضل الحب في الطريق

الأرض أمنا مثقلة

هياكلاً عظام

فأمشى الهوينى

لا تدس محاجر الصديق[1]

إذا كان الشعراء السودانيون قد حركوا ركود القصيدة العربية في الخمسينيات وملأوها بالغضب والنار والتمرد ، مبتدئين ثورتهم من واقعهم الحزين ، فإن هذه الموجات قد صبت في الغالب في نهر كبير اسمه أفريقيا ، وأن تعبيره لا يقف عند تسجيل الأحداث التاريخية ، أو إحصاء ظواهرها الطبيعية ، وإنما يمتد ليرسي رؤى فتية تنطق من واقع ذات الشاعر ، وتبين طبيعة مشاعره وأحاسيسه المتفاعلة مع معطيات واقع أفريقيا الاجتماعي في بيئاتها المختلفة تبعاً لموقف الشاعر منها نحسب متغيرات الواقع الحيوي للشاعر وقدرته على توظيف خبرته في صناعة الشعر.[2]

لذلك رأيناهم يبتعدون عن ذاتهم ليلتحموا بالناس ومشكلاتهم ، وهي بصفة عامة كانت تغني للكادحين في كل أنحاء الأرض ، وتتعاطف مع

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، ص ١٣ ، ١٤.

٢ عبده بدوي : الشعر في السودان ، الخرطوم ، دار الوثائق القومية ، وزارة السودان ، د. ت. ص ١١٢.

الشعوب المظلومة وبخاصة الشعوب الأفريقية التي تفشت فيها الأمية التي تسيطر على الشعوب ، مما جعل الشعراء يتجهون إليها ، ليصححوا مفهومها ومثالاً لذلك الخرافات التي ليس لها صحة من الواقع ومن هذه الظواهر التي تناولها تاج السر الحسن (الكهانة) في قصيدته (الكاهن) يقول:

وتوارت خلف الحقول بيوت كعبتها بالطين أيدٍ شريره
الجدار الذي لديها خطوط من حبال طينية مشدوده
طبعت فوقها أنامل بناء سقاها أيامه المكدوده
وترف الأبواب عرجاء تعوي ساهمات إلى السهول البعيده
وعليها تجمعت عتبات الطين تشكو خطى الأناس البليده
والبيوت العجفاء لا نافذات غير أشلاء كوة مقدوده
الضياء المحبوس يلقي عليها نقطاً من فيوضه المردوده
وكأن الدخان مستنقعات داخل البيت والكهوف العديده[1]

في هذه القصيدة يحمل الشاعر حملة شرسة على "الطائفية الكهنوتية" التي استغلت جهل الناس واستعبدت عقولهم وملأتها بالرهبة والخوف والتقديس الكاذب ، وذلك أنها تستعبد أجسامهم وتستغل جهدهم وكدهم لتضخيم ثروتها ومتعها في الحياة مبقية إياهم في شر حال من الفقر والجوع.[2] وهو يجسد حال الضرر الذي لحق هؤلاء الفقراء من هذه الظاهرة حيث يقول:

حيث يأوي المعذبون عبيد الحقل حيرى مع الظلام الموحش
بعد أن مصت الحقول عروقاً نابضات وساعداً عاد يرعش
ها هنا في الكهوف عادوا ولكن في غد يعرفون من كان ينهش
في غد يعرفون من كان يروي من دماهم أحناءه حين تعطش
فهم اليوم يشعرون ولكن في غد ثورة العبيد ستبطش[3]

---

١ ديوان قصائد من السودان ، جلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١م ص ٧٥ ، ٧٦.

٢ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١٢٨.

٣ ديوان قصائد من السودان ، ص ٧٦.

ونحس في شعر تاج السر أنه لا يقف من الأحداث موقف المتفرج الذي يصفها من الخارج ، بل ينفعل بها انفعال الممارسة والمشاركة الفعليـــة. فهـــو ثائر على أوضاع مجتمعة بكل ما فيها من استكانة للإستعمار ، وكبت للحريات ، فإن الشاعر مهمته الأصلية هي الانطلاق بهذا الواقع ، ومنه ، إلى غد أفضل ممتد إلى ما بعد الواقع أي مرحلة المستقبل ، وكانت الثورة في فكـــر وقلـــب الشاعر ، التي صاغها من واقع إحساسه بالوطن الكبير ومن واقع الإنسانية في نفسه ، فكان نصيراً للثورة والكفاح في كل أرجاء الأرض يقول:

جاع كل الناس

لم يبق أحد

ظمئ النيجرا

وبني عامر

والأمهره

والهدندوه

والصوماليون

وأهل جيبوتي

كل القرن الأفريقي

اشتعلت فيه نار الجوع

مات الطفل الشاحب

ماتت حتى الأم

ومات الأب

القرية لم يبقى بها أحد

غير جذوع الشجر الميت

وهياكل قطعان ملقاه[1]

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر ، ص ٣٩ ، ٤٠.

وفي ضوء هذا يمكن القول بأن للشعب السوداني تركيبة عقلية ووجدانية خاصة به، وقد كان وراء هذا أن الإنسان فيه منعزل إلى حدٍّ ما ، وأنه يضع في العروبة رجلاً ويضع في الزنوجة رجلاً وأنه مرغم على تأصيل ذاته وعلى الإحساس بهذه الذات إحساساً مضاعفاً ومزدوجاً في الوقت نفسه[1] ، ومن هذا نجد أن شعر تاج السر قد اهتم بقضايا عدة طرحها في أشعاره فهو يؤمن بالإنسان لذلك جاء شعره دفاعاً عن حقوقه يقول:

ثم عادت إلى الأرض غارقة في الشجون
والليالي المليئات بالحزن
نشرت ضوء الظلام
يطوفن يرقصن فوق الحصون
لقد سحقت رئة الطفل
وانطفأت شمعة البنت
ثم طواها المنون
نهدها زهرة لم تزل تحت أكمامها
لم يشاهد تفتحها الناظرون
كل شئ يهون
الليالي من الحزن مغرورقات
ونجم الصباح حرون[2]

وهو شاعر يؤدي واجبه ويقوم بدوره في خدمة قضايا السلام العالمي ، والمساواة الاجتماعية وفي محاربة الاستعمار وحلفائه ، الإقطاع والجهل والرجعية حيث يقول:

قلاعنا ترمي عميق الظلال
الشاطئ الغربي يا قارتي

---

[1] شعراء الوطنية في السودان، صلاح الدين المليك، ص١٣١.
٢ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ٨٦ ، ٨٧.

يلبس ثوباً من حداد الليال

ونحن في ظل القيود الثقال

آباؤنا أجدادنا في القرى

من غير جدوى في أسىً وابتهال

ترقبوا عودتنا غير أن

الليل غطاهم وغطى الجبال

وأبحرت للغرب تلك السفن

نحن بها نرمق في يأس

نبكي ولكن دون ما نبس

عيوننا تودع الشطآن

أفريقيا! بلادنا! الجبال! والقيعان

آباؤنا أجدادنا في القرى

يقضون حزناً في دجى الوديان[1]

الشاعر في حالة نفسية ثائرة من الغضب والحزن الكبير ، وهو يصور الواقع الصعب الذي تعيشه القرى الفقيرة في القارة السمراء ، وذلك لأن المستعمر يتاجر بأهلها ، مما جعل كبار رجال القرية يعيشون حال أسى وحزن وحيرة من أمرهم وهذا يوضح مدى تعاطف الشاعر مع الفقراء في أفريقية.

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٤٦ ، ٤٧.

المبحث الثاني

أثر التراث في شعر تاج السر

(١) الاتجاه الافريقي في شعر تاج السر:

لعل أهم عامل أثر في شعر تاج السر الحسن ، هو انتماؤه إلى الإتجـــاه الاشتراكي ، ولقد أخلص لاتجاهه إخلاصاً لا يكاد ينظم الشعر إلا دفاعاً عـــن قضية الاشتراكية والتمجيد لمواقف الاشتراكيين ، أينما كانوا ويلاحـــظ بصـــفة عامة إن الواقعيين قد التزموا بالقضايا الإجتماعية والسياسية واتصلوا شعورياً بالأحداث التي كانت تدور داخل الوطن وخارج الوطن في عدة دوائر ، وفي ضوء هذا يصدق عليهم القول بأن القصيدة ذاكرة الشعب لا ذاكرة الشاعر وأن الشاعر يتأثر أكثر مما يؤثر.[١]

لم يترك تاج السر مكاناً به ثورة مناضلين إلا تغنى بها ملتزمـــاً بمبـــدأ وحدة النضال في العالم كله. فقد تحدث عن مصر ، وكينيـــا ، وأندونيســـيا ، والصين ، وفيتنام ، والهند ومجد صمود شعب كوبـــا فـــي وجـــه الإســـتعمار الأمريكي في قصيدته "ينبوع على الصخور" وتغنى لجنوب أفريقيا وموزمبيـــق والجزائر ولكنه في هذه القصائد جميعاً داعياً لمذهبه السياسي أكثر منه شاعراً يعيش في وجدانه تجربة حية.[٢]

وهذا اللون من الشعر بصفة عامة كانت تغنى للكـــادحين فـــي أنحـــاء الأرض وتتعاطف مع الشعوب المظلومة وتقدم الواقع الكريه الذي كان يسيطر على الناس ويظهر ذلك قصيدة الشاعر "الثورة" التي يقول فيها:

وكأني والشعب في ثورة النصر دماء تسقي الربى المقهوره

وكأن الدماء تكتب للتاريخ حرية القوى المأسوره

وكأن الثوار قد ظللتهم نفحة من حياة أمس المريره

---

١ شعراء الوطنية في السودان : صلاح الدين المليك ، جامعة الخرطوم ، دار التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م ، ص ٢٣٨.

٢ تيارات الشعر المعاصر في السودان ، محمد مصطفى هدارة ، ص ٤٩٣.

حين نادى فتى من الشعب هيا إن نمت نبعث الحياة الكبيره

حين مات الجدود تحت حذاء الظلم تحت الحوافر المغروره

غير أن الدوي قد عاد قصفاً يحمل الأمس كالقذيفة ناراً

ليدق الأعناق أعناق من داسوا جدودي وشردوا الأحرارا[1]

هذا هو الاستعمار، وهذا حاله في كل مكان، وهذه الكلمات القوية التي تجسد مأساة الشعب العربي والأفريقي وتصف وتصور وحشية وهمجية على الدول المستعمرة، وتدين كل كلمة فيها تاريخ الإنسان الذي يسمح بأن يكون الموت ثمن الحياة. وقد استطاع أن يلون كلماته بلون الدم والعذاب بحيث يوظف كل كلمة في دورها في التعبير. وهي محببة يحسها كل إنسان محب للحرية والعدالة التحرير. فالوضوح هنا وضوح المعنى المتأصل في نفوس الناس، والمفردات بسيطة وشائعة وبعيدة عن الحذلقة وفي الوقت نفسه جريئة وموحية.[2]

وكان عليه أن يطمح ببصره إلى وراء الأفق ، ليلمح الأبعاد المترامية للتحول الجديد. يقول:

فلتتفجر يا قلبي نورا

أشرق أملاً وسرورا

وتكلم يا قلبي عَبِّرْ لن يبقيك الإحساس أسيرا

حدثنا واعزف ألحانك من ضلع المزهر

ومروجك شجِّرها ورداً وجبال والسفح الأنضر

العالم يا قلبي ينضو عنه ثياب الأحزان

ويمد على شط التاريخ الأفراح لمجد الإنسان

فلماذا يا قلبي لا تشدو وتنغم أزهى الألحان

فلنضحك قهقهة تعلو وتئز كصوت البركان

---

١ ديوان قصائد من السودان ، جيلي عبد الرحمن ، تاج السر الحسن ، ص ٦١.

٢ الشعر في السودان، عبده بدوي، دار الوثائق القومية، ص ٢١٧

ولنمرح فالأرض ضفاف ومروج خضر وأغان[1]

فهو بدأ القصيدة بالغناء منطلقاً من إحساس بالفرحة لهذه الانتفاضة التي حدثت وهو عنها بعيد. فكتب من على البعد يحيي رؤى وطنه التي يجتاح خياله من النخيل ، ولكن الشاعر ينتمي إلى عقيدة ترفض اليأس ، وتأبى إلا أن تستكشف في صراع الحياة قوى الخير والأمل إلى جانب قوى الشر والهزيمة ، وتؤمن بأن النصر في النهاية لأهل الأرض لا للمستعمر ، وهو شاعر ذكي ماهر ، لا يفرض أمله على قارئه فارضاً مبتسراً ، بل يولده من طبيعة موضوعه توليداً مقنعاً فهو يرسم في لمسات تدريجية حوافز الأمل.[2] ويقول:

الأرض تضيئ بزيت الدم
فشهيد مات ومن دمه سمقت آلاف الأنجم
والفجر يشد خطى في درب فتحه شعب أقسم
لن يظلم بعد الأمس القاتم لن يظلم
أكتوبر كان صباحاً مد ظلال الأضواء
في عالمنا هذا الجاثي في عتمات الظلماء
أكتوبر[3] كان شعاراتٍ هزت أعراش الأعداء
الجوع الأسود لن يبقى لن يبقى ، ليل البؤساء
كنذير العاصفة الهوجاء تحدر من كل الأرجاء[4]

واضح أنه ليس فناناً فردياً يبتغي بفنه التنفيس عن عواطف ذاتية أو التعبير عن تجارب شخصية خالصة، بل هو يهب فنه ويكرسه لإيقاظ هذه الألوف أو الملايين ودفعها إلى الثورة. ولكن ما أهداف هذه الثورة تحقيق الحياة العظيمة للشعب باسترداد حقوقه المغتصبة وحريته المسلوبة والانتقام من

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٢٨.
٢ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١٣٩.
[3] ثورة سودانية شعبية ضد الشمولية البغيضة.
٤ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٢٨ ، ٢٩.

أعدائه الذين ظلموه وجوعوه وضللوه وكبحوا وقيدوا قواه.[1] فهو يرسم ويصور ملامح تلك الثورة تصويراً دقيقاً ليس فيه مباشرة خطابية ، ويحدد اندلاع تلك الثورة في ساعة قيامها لا متأخرة ولا متقدمة وهو عنها بعيد ، ويوردها في موضعها الصحيح من الصورة لتكون الرباط الوثيق حيث يقول:

الآن الساعة تعدو منتصف الليل
وصدى الأقوام تفح وهمهمة الخيل
وأزيز رصاصات يدوي وهدير السيل
لن يبقى فيها قيصر لن يبقى فيها سلطان
ما عدنا نقبل أن يملكنا هذا القرصان
ألقينا عن كاهلنا القيد الآن الآن
فاتحدي اتحدي يا قدرات الإنسان
ورأيت بعيني المبهوره
في تلك اللحظة طوفان غطى أطراف المعموره[2]

توضح هذه الصورة التي رسمها الشاعر عن الثورة مدى اهتمامه بقضايا وطنه وما يدور فيه وقد صورها تصويراً واقعياً لأنه شاهد هذه الثورة مع أنه كان عنها بعيداً كما ذكرنا ذلك سابقاً ولأنه كان ثائراً بقوة شديدة تجعل من يقرأ هذه القصيدة يحس بأن الشاعر واحد من المقاتلين في هذه الثورة وذلك حين يقول:

في منعطف البحر العالي ألمح فكاً شرقيه
بشراع للنجم تعالى قانٍ كقلوب الثوار
دفعته للريح وجوه تحدوها روح الإصرار
يا هذا الطوفان الضاري
لن تطفئ مصباح النار

---

١ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١٢١.
٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٢٩.

لن تغرق فجر الأحرار

فهنالك ربان شرقي يدري ما بعد الشطآن[1]

وكذلك يتضح مدى التزام الشاعر برسالته الاجتماعية التي لا يحيد عنها ولا يلتفت إلى ذاته أو إلى أي شئ خارج نطاق تلك الرسالة الاجتماعية التي تدعو إلى تمجيد المناضلين ، وتدعو إلى قصر الأدب على أناشيد العرق والكفاح والتغني بحياة الجماهير التي تكدح في سبيل مجتمعها ونلحظ ذلك في قصيدته (آسيا وأفريقيا) يقول:

عندما أعزف يا قلبي الأناشيد القديمه

ويطل الفجر في قلبي على أجنح غيمه

سأغني آخر المقطع للأرض الحميمه

للظلال الزرق في غابات كينيا والملايو

للمنارات التي شيدها أول مايو

لليالي الفرح الخضراء في الصين الجديده

والتي أعزف في قلبي لها ألف قصيده

لرفاقي في البلاد الآسيويه

للملايو ولباندونج الفتيه

يا ديان فو

أرضنا للنور والأزهار تهفو

مشهد القلعة ما زال بعيني معلق

والأعادي جثثاً في صخرها الأزرق تشنق[2]

يقول عنها مجذوب عيدروس: "لأن كثيراً من الشعراء قد مزجوا بين كتابة القصيدة وكتابة الافتتاحية السياسية .. فخرجت قصائده هادفاً هاتفاً جوفاء وإن حاول أن يتغلف وراء مظاهر براقة لمضامين إنسانية وثورية وفكرية لا

١ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص٢٩- ٣٠.

٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٠٦.

يستثني من ذلك إلا أعمال قليلة منها رسالة في ليلة التنفيذ لهاشم الرفاعي وآسيا وأفريقيا لتاج السر الحسن .. وتأكيداً لما قلته من التزام بالموضوعية فإن إطلاق الأحكام أمر سهل والبحث عن تبرير أسهل لن ينتقص الذكاء. ولكنا نقول إن الرؤيا والمنهج الذي يحكم الأحكام النقدية يتطلب في المقام الأول نظرة شمولية تتناول العمل الفني من خلال رؤيا ذاتية وموضوعية بمعنى أن نغوص في العمل الفني من خلال رؤيا ذاتية وموضوعية لتحدد أبعاده."[1]

وفي مشهد من القصيدة يصور لنا الشاعر مأساة جندي مات مجهولاً مقبوراً في بلد غريب بلا قضية حيث يقول:

"يا ديان فو"

لقد رأيت الآن جندياً مغطى بالدماء

قلبه الأحمر كالوردة ملقى في الفضاء

كان من باريس لكن مات قهراً

"في ديان فو"[2]

ونجد الشاعر امتزجت عنده الثورة في بلاده والبلاد الأخرى التي يناجيها ، ثم تشتد وتعلو صرخته ، ولعل هذه العاطفية الشديدة الحساسة هي العامل الرئيسي في اتخاذ شعره الطابع العاطفي الثائر الذي حمل لواء الكفاح ، والمقصود بالكفاح وجود الحركة الصراعية في القصيدة والحماسة العسكرية في معالجة الموضوع وكثرة الألفاظ السياسية وازدحام الصور المقتبسة من مجالات النضال ، وتحس أن قلب الشاعر ينبض من حرارته.

وفي لوحة كثيرة الألوان والظلال يصور التضامن الآسيوي الأفريقي ويقول:

ها هنا يختلط القوس الموشى

***

---

١ جريدة الصحافة : الملحق الثقافي بعنوان دعوة لقراءة جديدة ، مجذوب عيدروس ، السبت ١٩٦٨/٢/٢٤م.
٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٠٧.

هاهنا من كل دار كل ممشى

نتلاقى كالرياح الآسيويه

كأناشيد الجيوش المغربيه

***

مصر يا أخت بلادي يا شقيقه

يا رياضاً عذبة النبع وريقه

يا حقيقه

مصر يا أم صابر

ملء روحي أنت يا أخت بلادي

سوف نجتث من الوادي الأعادي

فلقد مدت لنا الأيدي الصديقه

وجه غاندي وصدى الهند العميقه

صوت طاغور المغني

بجناحين من الشعر على روضة فن

يا دمشق

كلنا في الفجر والآمال شرق[1]

وقد اختار كتاب الشعر عند الجيل الجديد ، بطبيعة تطلعاتهم النفسية من جهة ، وبنتيجة الأحداث السياسية في الستينيات من جهة أخرى ، تلك الموضوعات الأقرب إلى الروح النضالية أو الإنسانية. وكانت بطولة المقاتلين ، ولا سيما من أفراد الجيل العربي والسوري تلك التطلعات القومية التي أسهم فيها الجيل الناشئ في جميع أنحاء العالم ، لأنهم يريدون أن يجندوا الأدب لخدمة المجتمع عن طريق الالتزام ، ينسون أن مهمته القيادية في الجماعة لا يمكن تصورها إلا مع جبرية الالتزام لا الإلزام ، والجبرية هنا ، إنها مفروضة على الأديب تلقائياً ، من طبيعة رسالته ومسئولية ضميره ، وهو لا يتلقى هذه

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٠٨.

المسئولية من خارج ، ولا يأمره بها آمر ، من كان لأن الأديب ، أو الفنـــان ، هو وجدان الأمة في أصفى نقائه ، وضمير الجماعة ، لذلك اندفعوا يكتبون عن المأساة التي تؤرق ضمائرهم وتشغل بالهم.[1]

ولعل أروع صورة تهز الشعور هي التي استخرجها الشاعر من أحداث أول قنبلة ذرية بددت أحلام إنسان القرن العشرين من سلام وأمن والأبيات في القصيدة بمقاطعها العديدة تمثل صوراً للمدينة برجالها وأطفالها قبـــل المأســـاة بقليل وبعدها بقليل حيث يقول بعنوان: "بين الثامنة والتاسعة":

دقت الثامنة

الساعة دقت هروشيما

تحمل الأمواج للشط حكاياها القديمه

زورق مد إلى الضفة كفاً بالوداع

أطلق الصياد للج تلافيف الشراع

في رؤوس الموج فلين الشباك

حوته فضية تقفز تسعى للهلاك.[2]

وينتقل إلى تصوير الفتاة التي كانت فرحة تحمل معها صـــحيفة فرحـــة بالحصة الأولى التي ستكون رسماً وهي تحب الرسم وتحب أن ترسم هروشيما .. فيقول:

دقت الثامنة

الساعة دقت هروشيما

وصحى شعبك يجتر أغانيه القديمة

في يد الريح الصباحي رمى الموج حفيفه

طفلة ربطتها الحمراء في الرأس وريفه

حملت في يدها اليمنى صحيفة

---

١ الشعر الحديث في السودان ، محمد إبراهيم الشوش ، كتاب الأول الشعر التقليدي وبداية التجديد ، جامعة الخرطوم قسم التأليف والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ ، ص ١٤٢.

٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٢١.

ستكون الحصة الأولى رسوماً

وهي تهوى الرسم ، تهوى هروشيما[1]

ولكن الشاعر تاج السر يندفع بشكل واضح بعد احتلال الشعوب العربية والأفريقية بعد أن استوعب الأحداث وخرج إلى الشارع مؤثراً ومتأثراً فصاغ الكثير من القصائد المعبرة عن المأساة ونتائجها. فمع احتدام الصراع يتسع قلب الشاعر أكثر فأكثر للمعركة التي يفرضها النمو المضطرد لبذور التناقض في أعماقه ويختلط فيه العطف وجذل المحبين بالفزع من الوحش المتربص الذي يريد أن ينقض ليخطف الفرح وليدنس براءة الحب وليحول دون فجر الخلاص ، حيث تتسع دائرة التآمر وتسرق الأرض من أصحابها الشرعيين ، يطرد الجزء الأكبر منهم خارج حدودها ، ويترصد العدو البقية الباقية ليلقوا نفس المصير من الاقتلاع والتشرد ، وأمام هذه المآسي التي تعرض لها شعب أنجولا لا يلبث الشاعر أن يصرخ بأسىً بالغ وحزن عميق كأنه واحد من أبنائها .. يقول في قصيدته فلتحرر أنجولا:

وفي القرى

عجائز يبكين عند المساء

من يذهب اليوم لجني الثمار

من يحرس الغابة إن طوفت

في الليل أفيال بقرب الديار

من يشعل النار ومن حولنا ..

الناموس والأسود ، والأشرار

من يعتني بالصغار

للصيد من يذهب إنا هنا

نموت جوعاً في أسىً واندحار[2]

---

١ المرجع السابق ، ص ١٢١-١٢٢.

٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٤٧-٤٨.

يعلق صلاح الدين المليك على هذه الأبيات ويقول: "يتخيل الشاعر ههنا حال قرية أفريقية بعد أن اختطف تجار الرقيق وخلفوا نساءاً عجائز لا يقوين على إلا على الندب والتحسر لكن من العجائز من تحمل الراية وتبث الحماس في الصغار وتقوم في نفس الوقت مقام العائل الغائب ، أما شاعرنا فقد صورهن ضعيفات مسترخيات وكأنه أراد استجداء العطف ولم يرد إثارة الحماس.[1] والشاعر تاج السر لا ينقل الواقع نقلاً حرفياً وإنما يصطفي منه النماذج ، ويختار الشخصيات ، فتكتسب شعره بذلك قدرة جديدة على التأثير بالواقع الأصلي والتفاعل معه وتفجير طاقاته الكامنة. يقول الشاعر تاج السر:

وموكب الشغيلة الأحرار والنضال
والعلم الذي طوقه الحمام يشقق الظلام
ويبعث اللهيب
وقبضة السواعد المفتولة السمراء
تشيد الضياء
وفي الصباح
يفتح المجهول أشياء لم تكن تقال
شمال أفريقيا تعود تحمل السلاح
ويضرب العمال في مصانع النسيج
في لانكشير
حيث قطننا يباع بالتراب
واضرب المزارعون في الجزيرة الخضراء[2]

---

١ شعراء الوطنية في السودان : صلاح الدين المليك ، ص ٤٤.
٢ قصائد من السودان : جيلي عبد الرحمن وتاج السر ، ص ٩٢.

والواقعية التي ينتمي لها الشاعر تنقل الادب من حيز الانفعال الذاتي المحض ، ومن نطاق الخيال والتأمل المجردين من الحقائق إلى حقول النشاط الإنساني حيث الناس البسطاء ويعملون وينتجون[1] حيث يقول الشاعر:

أبناؤنا الذين ماتوا عند حومة النضال

صلاح

وهي تحتوي رفاته صلاح

تذكره القلوب في مدينة الشمال

يذكره الرفاق بالسلاح

وقرشي تعرفه مدينة الجنوب

وملتقى النيلين عند مشهد الغروب

والشرطة الذين يرهبون وحدة الجموع

يعرفه الجميع

حتى الذين يشربون من دم الرعاع

وسادة الإقطاع

يعرفه الرعاع

مضرج بدمه يموت في الصراع[2]

وتاج السر لا ينكر أنه شاعر ملتزم ، وأن الشعر ينبغي أن يكون له هدف ، ولكن الالتزام لا يعني التقريرية والالحاح على صورة مكرورة متشابهة ، والتحدث بصوت عال عن شعارات متفق عليها. فالواقعية الاشتراكية التي يؤمن بها تاج السر تنفر من التسجيل الحرفي لتجارب الإنسانية لأنها تصبها في قوالب جامدة وتشغلها بكثير من توافه الأمور التي لا تعني المجتمع ، وفي داخل إطار أهداف الإشتراكيين وشعاراتهم نجد تاج السر

---

١ شعر وشعراء في السودان ، أحمد أبو سعد ، بيروت ، مطابع دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م ، ص ٢٤.

٢ ديوان قصائد من السودان : جيلي عبد الرحمن وتاج السر الحسن ، ص ٩٣ – ٩٤.

يتغنى للشعب الكادح الذي يتعذب تحت وطأة الاستعمار ويدفع الشعوب لنيل الحرية التي تعتبر أسمى أهدافهم.[1]

يقول الشاعر في قصيدته "ينبوع على الصخور" التي حيا فيها صمود شعب كوبا في وجه الاستعمار وهو يؤمن بوحدة النضال أين ما كان ويؤمن بالإنسانية جمعاء حيث يقول:

كوبا .. يا حصن النيران

الموت يحيطك .. الصمت .. الأكفان

وبلادي فوق حريق الشمس

في الغابة تمد شرارات الثوار

يشتعل الهمس

كوبا مستقبلنا الأخضر يا مهداً .. يا رمس

***

في قلب الصخرة أحياناً ينفجر الينبوع

وعلى الصحراء تمد الغابة ظلاً وفروع

وتسير القافلة العطشى نحو الغاب

ويعود الغرباء إلى أرض الأحباب[2]

تاج السر شاعراً ، لكنه أخضع تلك الشاعرية لمقتضيات برنامج سياسي يوجهها ويكرسها لخدمة أهدافه ، وانضم إلى اتجاه الواقعية الاشتراكية التي تحول القصيدة إلى منشور سياسي ملتهب ، هنا يكون النزاع بين استقلالية الفن وتصونه عن الدعاية ، وبين تكريس الفن لخدمة قضايا سياسية أولاً ، وكان اختيار تاج السر دالاً على منهج الموقف السياسي الأولية[3] يقول:

فلتصمد أقدامك عبر النيران

---

١ تيارات الشعر المعاصر في السودان ، محمد مصطفى هدارة ، ص ٤٩٤ – ٤٩٥.

٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ص ٥٤، ٥٥.

٣ جيلي عبد الرحمن : شاعر الوقت في سياق آخر : الياس فتح الرحمن وحيدر إبراهيم ، ص ٩٠.

أكتوبر ظلل أرضك ذات الأحزان

القيصر قد ولى والطاغي أسيان

فليلهمك التاريخ التاريخ الملآن

وليحيي فيك أخي الشعب الإنسان

يا أرض السكر في غابك تخضر الأعشاب

والقصب الأحمر بارود‌اً وحراب[1]

وعلى كل فهذا الشعر يتعاطف مع الطبقات الفقيرة ويعصف بمـــن وراء هذه الطبقة ، ويعطي أملاً دائماً للإنسان ، ويأخذ أدواته من عالم الناس البسطاء ونماذج لذلك في قول تاج السر:

سفن البحر مليئه

بصليل القيد والأيدي البريئه

ها أنا عبد على مر السنين

أهلي الحقل ووقع الفأس لغوي

في السكون

لو تصورتم مدى الذل المهين

لعرفتم أي هوه

حفرتها يدكم لي أي هوه

"إن من يحفر قبراً لأخيه"

"مات فيه"[2]

إن الكلمات تقف عاجزة عن التعبير في التضحيات والمعاناة حينما تتحـــول الأساطير إلى حقائق.

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٥٥.

٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١١٩.

ونجد تاج السر يتغنى بالشعب الكادح الذي يتعذب بالجوع والفقر ، ولكنه يثور ليحقق ذاته وكرامته ، ويؤمن بالفجر الذي سوف يشرق من خلال الظلام[1] حيث يقول:

الجوع يشوي عظامي
أنا الذي عشت أذكي الضرام بعد الضرام
أنا الذي عشت أسقي المأساة جرعه جامي
يا أصدقائي الأعزاء لاح وجه الظلام
والفجر وجه صبي أردته كف الحمام
ومات ما شيعته إلا طيوف الغمام
لم يبق في الأفق إلا بعض غبار الركام
والشمس للغرب مالت تطوي الأكف الدوامي
والجوع يشوي عظامي[2]

أدرك الشاعر تاج السر بحسه المرهف ونفسه الشفافة هموم الواقع الذي يعيش فيه وعرف سبب أمراضه وبؤسه ، لذلك فهو يرنو ببصيرته الملهمة إلى نور الفجر الجديد الذي تحجبه ظلمات الليل ، فيخوض معركة الغد عن التزام قوي. ويقول الشاعر:

يا أصدقائي الأعزاء والحياة فراق
أيامها ذكريات وألفة وعناق
ما عدت أشكو المنايا : فالعيش فيها اختناق
المرء إن عاش حراً لا يستبيه النفاق
جبينه في السماء انفلاتة وانعتاق
إن عاش حراً كريماً ضميره خفاق
لم يرض بالذل عيشاً أو كالشياه يساق

---

١ تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان ، محمد مصطفى هدارة ، ص ٤٩٥؟
٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٨.

سيقتلون رؤاه ماتوا ومات الشقاق[١]

نجد الشاعر باحثاً عن الينابيع السخية التي أرهفت وعي الشعب والمشاعل التي أضاءت مسراه في ظلمة الليل.

(٢) الاتجاه العروبي في شعر تاج السر:

إن الشاعر تاج السر الحسن نظم كثيراً من الشعر في الشعوب العربية في ظل المستعمر الذي سيطر على الشعوب العربية ردحاً من الزمن وذلك لإيمانه بقضايا الإنسانية فأصبحت قصائده ذات ألفاظ جزلة وأصوات داوية تعبر عن معاناة الشعوب تعبيراً صادقاً التحم فيه صوته مع صوت وإرادة الشعوب الذين ظلموا من ذلك الجبروت وتلك الليالي المظلمة إلى أن أشرقت شمس الحرية بجلاء المستعمر وقد غنى له شاعرنا برقيق شعره مصوراً بألفاظه مدلولات الفرحة والسعادة حيث يقول:

قد عاد ذو يزن
جواده يخب عرفه يداعب السماء
يمد ظله في اليمن السعيدة الخضراء
أعلامه الجديده
رفت تظلل الحديده
قد عاد يحرق الأغلال والوثن
وقصر صنعاء الذي يحوطه العبيد
تكسرت قلاعه أعمدة الحديد
ومات مالكوه في متاهة الزمن
غطاهم باللعنات والأكفان[٢]

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٨ ، ١٩.
٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٥.

وهكذا تبرز لنا مسيرة الشاعر تاج السر ومدى تعاطفه مع الشعوب العربية وهو يقف مع شعب اليمن ، وهنا تظهر لنا إنسانيته التي انتقدت الظلم والتفرقة الاجتماعية الطبقية ، وبلغت تلك المشاعر ذروتها عندما يقول:

وعاد ذو يزن

على وجوهكم يا رفقتي عيناه تلمعان

وفي شفاهكم نبرة صوته الجسور

وفي أيديكم حسامه يقطر منه النور

وفوق حده دم الطغاة والكهان

قد عاد فليتحد الجنوب والشمال

ولتنحسر مأساة تلكم الليال

بلادنا صنعاء أو عدن

سعيدة قوية بلادنا اليمن

ففي ربوعها قد عاد ذو يزن[1]

فالشاعر يتناول القضايا الوطنية والإنسانية ويكسر القيود الخاصة ، ويوسع من دائرة الإهتمام بأدبه وفنه ، فبدلاً من أن تتذوق شعره مجموعة محدودة من الناس ، يصبح مغنياً لكل الشعب ولكل الناس ، بل يصبح شاعراً إنسانياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وهو محبوب للجميع لأنه يرفع المعاناة عن كاهلهم.[2] يتغنى الشاعر للإنسانية وتنساب عباراته رقة تعكس مدى عطفه على الإنسانية يجسد ذلك في قوله:

لمن تصنعون الصواريخ

ما عاد شط ببحر الخليج لكم

غربت شمسكم

ألم يكفكم ما قتلتم

---

[1] ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٦.

[2] الابتداعية في الشعر العربي الحديث ، تاج السر الحسن ، بيروت دار الجيل ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م، ص٣٢.

من العرب الطيبين

وبحارة الجزر الساحلية

كل الرجال يشدون

أشرعة الشرق نحو المنار

أولئك ، من أنضجوا قدر هذا الوجود

بكل التوابل

ألم تنشقوا ذاك العبق الفلفل

الذي جذب الأبيض المعتدي

وأسال الدماء

وأحرق كل المنازل

عبر بلاد العرب[١]

فالشاعر يشير إلى انعدام العدالة ، يرى المعاناة الإنسانية ، لذلك نجده يتساءل في حيرة عن العدالة والحق وأين هما ، وهنا الشاعر يمثل الوعي العربي بأشكاله المختلفة ومظاهره المتنوعة ، والذي يعبر عن شعور الأمة العربية بكيانها، وإحساس الشعب العربي بذاته ، وبحقه في حياة كريمة ، ومن أجل ذلك كثرت الانتفاضات الثورية في عالمنا العربي محاولة الخلاص من ربقة الإستعمار. وقد تعاطف الشاعر تاج السر الحسن مع الشعب اللبناني الذي تمزق من قبل العدو الصهيوني حيث يقول:

حرب بيروت تقتلني

فالحروف التي فاح منها العمار

تهاوت على جرف نارٍ حمي

والكتاب الذي طبعوه

رموه لمحرقة في المطار

توارت عن الأنجم[١]

---

١ ديوان الأتون والنبع ، ص ٨٤.

وأصبحت نفس الشاعر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقضـــية اللبنانيـــة ، وهنـــا نكتشف في شعره تلك الإشارات الإنسانية العميقة وذلك عندما يقول:

تلك بيروت محمولة

خلف غرفةِ إنعاشها تحتمي

الجراحات قد أغرقت جسمها

والطفولة دامية الأعظم

تلك بيروت مكتبةٌ وشحت بالدم

وهي رغم الجراحات تعطي

ورغم النزيف لنا تنتمي[٢]

ويقول الشاعر عندما ذهبنا إلى مصر كان الكفاح ضد الإستعمار في أوجه وكانت هنالك حركة وطنية عربية تسمى الحركة السودانية للتحرر الوطني "حستو" وكانت حركة معادية للإستعمار وللإقطاع وللرأسمالية وكانت تعمل بشكل ســـري (تحت الأرض) وكانت حركة قوية فانجذبنا إليها حتى كان الإنضمام[٣] يقول عنها:

جمعتنا القاهرة

عندما كانت منار الكلمات الظافره

ورفاقي في رباها قمماً

تتعالى ونجوماً زاهرة

وحّدتهم فكرة راسخة

تتحدى الفكرات الخائره

في دمانا صوت وهران تعالى

وترامت بورسعيد الثائره

وعلى أشعارنا النيل مشى

١ديوان الأتون والنبع ، ص ٦٣ ، ٦٤.

٢ ديوان الأتون والنبع ، ص ٨٤.

٣ من لقاء عمر الجزلي بالشاعر ، الفضائية السودانية ، برنامج أسماء في حياتنا ، الحلقة الثانية ، بتاريخ ٢٠٠٥/٧/١٢.

للغد الحر شعوباً ظافره

قتلت نيرونها وانطلقت

تغرس الأرض أمانٍ عاطرة[1]

وهذا الشعور له جذور عميقة في تاريخ الأمة العربية مما يشهد بأن العربي لم يتخل يوماً عن الاعتزاز بقوميته وبحاجته الملحة إلى كيان موحد ، وقد تأكد هذا الشعور وبدا واضحاً عندما تعرض العرب للتحديات الخارجية التي أرادت الانتقاص منه[2] ويقول:

الوداع

ربما لا نلتقي يا رفقتي

وحملت البندقية

فإذا ما لفني الموت السعيد

في ربا وهران لا تبكوا عليا

ربما لا نلتقي يا رفقتي

فتعالوا نقسم العهد سويا

أقسموا باسم أمانينا الفتيه

باسم أحلام الرعيه

كل ما نكتبه من أجلها

كل ما نعمله من أجلها

فلنمت من أجلها

ولنعش من أجلها[3]

وقد يحصر الشاعر نفسه في نطاق ضيق من الذات يكاد يعزله عن الحياة والناس ومع ذلك يظل الشاعر هنا وهناك معبراً عن مجموعة من الناس هو

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ص١٢٣، ١٢٤.

٢ الشعر في السودان ، عبده بدوي ، الخرطوم: دار الوثائق القومية ، وزارة السودان ، ص ١٠٩.

٣ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٢٤.

وحدتهم الصغرى الناطقة باسمهم ، والمعبرة عن مشاعرهم. وهذا بعينه ما يعطي عمله الوجداني الذاتي قيمة اجتماعية ما.[1] ويقول الشاعر:

لست أدري يا رفاقي

فأنا ما زرت يوماً أندونيسيا

أرض سوكارنو وما شاهدت روسيا

غير أني

والسنا في أرض أفريقيا الجديده

والدجى يشرب من ضوء النجيمات البعيده

***

يا جزائر

ها هنا يختلط القوس الموشى

ها هنا من كل دار كل ممشى

نتلاقى كالرياح الآسيويه

كأناشيد الجيوش المغربيه

***

مصر يا أخت بلادي يا شقيقه

***

يا دمشق كلنا في الفجر والآمال شرق[2]

هذا ما نلمحه في كل الشعر الإنساني الرحب الذي تجاوز مدى الذات الواحدة بل الأمة الواحدة ليصبح شعراً أممياً.

ولكن تاج السر شاعر عرك الحياة وعركته فتحولت أفكاره فيها إلى مواقف عملية ، وفلسفته فيها جسدت تناقضات الحياة ومأساتها ومفارقاتها[3] حيث يقول:

---

١ الابتداعية في الشعر العربي الحديث ، تاج السر الحسن ، ص ١٩٢.
٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٠٧ ، ١٠٨.
٣ الابتداعية في الشعر العربي الحديث ، تاج السر الحسن ، ص ١٩٠.

مات "زعرور" على أرض الجزائر

مات ثائر

قد بكينا لحظةً يا رفقتي

لم يكن زعرور فوق الدرب عابر

إنه من بيتنا من أهلنا

لا غريباً ليس يعنينا مصيره

جمعتنا في المعادي ذكريات

فأماني الغد ما زالت كبيره[1]

فالشاعر يصور الفجيعة ، التي انتابت شعب الجزائر في الثورة مـــا أروع هذه الصورة ، وما أفجعها. يصور لنا الشاعر موقف صاحبه الذي آمن بقضـــيته فمات شهيداً من أجلها وهي الحرية ، بذلك سجل له الخلود ولأن فنه صادق ونابع من حقيقة الحياة.

أما موقف الشاعر تاج السر الحسن من القضية الفلســطينية ، فقــد ظلــت فلطسين مبعث الحزن في قلوب شعراء العربية ، وأصبحت هي المحور الأساسي لاتجاهات جميع الشعراء العرب ، وذلك لأنها تصور مدى فداحة الجرح العربي ، في وقت صمتت فيه كثير من الأفواه ذلك الصمت المهين. ولكن تاج السر لم يكن من الصامتين بل نجده ألف ديواناً كاملاً في القضية الفلسطينية.

ويبدأ تاج السر متأثراً بتلك الغارة التي حدثت في ليلة عيــد الفصـــح فـــي ديسمبر من عام واحد وخمسين وتســـعمائة وألــف حينمـــا أغـــارت الطـــائرات الإسرائيلية على قرية (عكريت) وهدمتها تهديماً كاملاً .. يقــول القــس يوســف سوسان من سكان القرية: "رأينا بأعيننا كيف قذفت الطائرات القرية وقضت علـــى منازلنا ، وأشعلت النيران في حقولنا لقد ارتعدت أرواحنا من فظاعة ما حـــدث ، وتحول بعضنا من ملاك إلى أجزاء في الأرض التي كانت ملكاً لنا."[2]

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٢٥.

٢ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ٧ ، ٨.

مما أهاج نفس الشاعر فكانت قصيدته "عندما حل عيد الفصح" حيث يقول:

القرية "عكريت"

أو قل: كل الأرض المحتلة

والوقت ربيع

برعمت الأرض ثناياها الخضراء

وذاب الثلج على قمم الجبل العليا

وازدهرت دوحة أرز

ألقت ظلاً في الأنحاء

وجرى الماء يثرثر فوق الجدول

والعصفور يحلق

والزرزور يزقزق

وفراشات تسبح في الاضواء[1]

الشاعر يصور حال القرية (عكريت) قبل أن يدخلها العـــدو الصـــهيوني ، وهو تصوير دقيق ، على الرغم من أن الشاعر لم يزورها وهذا يدل على مـــدى ارتباط الشاعر بهذه النكبة التي لحقت بها ويقول:

ها هي قريتنا شمرت الساعد

وانطلق الصبية نحو الحقل

شد الشيخ الطيب محراثه

لم يتصبب عرقاً هذا الشيخ الكهل

فقد كان قوي البنية

يعشق رائحة الفيحاء الأرض

وشذى حقله

وتناثر في أحناء الزرع صفوف الأبناء

أما النسوة في عكريت

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ٩.

فقد أشعلن النار على الأفران

وعجن الخبز

فالعيد الآتي ، عيد الفصح

وأعدت فتيات القرية زينتهن

لهذا اليوم المشهود

في كل الدور أعدت زينات العيد[1]

فالشاعر يصور حال أهل قرية (عكريت) ، وهم يذهبون إلى الحقول بكل همة وجد لإعمار الأرض ، وكما صور عمل النساء في القرية وهو تصوير صادق نحس فيه عطف الشاعر ، وذلك كما يقولون "الشعر إحساس بالحياة"[2] وهذا كان قبل الأعتداء الصهيوني ، أما عندما شرع الاعتداء في الدخول نجد الشاعر يقول:

لكن لم تكتمل الفرحة

فلقد جاء المنادي

حاملاً صوت النعيب

أخرجو يا أهل (عكريت)

إلى السفح المجاور

وخذوا ما استطعتم

من خفيف الأمتعة

ذاك حكم يقتضيه الأمن

لا تعترضوا

فالأمر صادر

إن من يرفضه

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ١٠.

٢ الابتداعية في الشعر العربي الحديث ، تاج السر الحسن ، ص ١٧٢.

لا بد يلقى مصرعه[1]

إن الإشارة إلى هذا الواقع يجب أن لا تحجب عن الأعين أهميـــة الإســـهام الذي قدمه الشاعر في استثمار بعض الجوانب القومية والإنسانية من الموضـــوع الفلسطيني ، هذا الانسجام بين الشاعر والقضية الفلسطينية ألقى بظله على تعاطفه من خلال الرؤية الشعرية حيث يقول:

وخرجنا

لم نكن ندري إلى أين المسار

أمل العودة في أعماقنا يزهو

وطال الانتظار

ثرثر الشيخ العجوز

سوف يأتي العيد

لكن أين نحيي الاحتفال

كعكنا المصنوع ، في أكتافنا

ثقل الحمل ، وصمت الليل طال

الثمانون من العمر تولت

كيف لا أذكرها كعكة العيد[2]

أخذ الشاعر منحنى آخر يصور فيه حيرة الفلسطينيين وقد جاءهم العيد بعد أن تم تدمير منازلهم وطردهم منها وهم يتساءلون اين يقيمون الاحتفال ، والشاعر مرتبط بهم يحس احساسهم ويعاني معاناتهم. انظر إلى قوله:

تلك قرانا

تلك السروات قريبات

تلك منازلنا

وبروج حمام حلق حول الساحه

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ١٠ ، ١١.

٢ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ١١ ، ١٢.

وهنالك بعض الأبقار

وبعض معيز

من يحلب منها اللبن الطازج هذا اليوم

وديوك تتلفت

من يأتيها بالحب

ومن يسقيها الماء

ودجاجات تحتضن البيض

من يستقبل أفرخها الزغب[1]

هذه الملحمة يناقش فيها الشاعر الكثير من قضـــايا الحيـــاة ، ومفارقاتهـــا وعلاقاتها ، وتناقضاتها. ولكنه لا يستطيع التعليل والوصول إلى عمـــق الحقيقـــة المطلقة وتنتهي تساؤلاته بقوله:

هل يفعل هذا الجندي الاسرائيلي

أسئلة لا ندري : كيف نجيب عليها

ومنازلنا بين يدينا

لكن لا نستطيع السير إليها

ومفاتيح الأبواب لدينا

لكن من يجرؤ أن يفتح باب المنزل

يقتله الأعداء

من يقترب من السور

يقيده الحراس

ويلقون به في غيهبة السجن[2]

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ١٥.

٢ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ١٥ ، ١٦.

وهو يصل إلى الحقيقة الصعبةوهي إن الأمر ليس بيدهم بل بيد المستعمر ، وهكذا أصبحت نفس الشاعر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقضية الفلسطينية وما يحدث فيها شأنه شأن كل الشعراء العرب. يقول:

سنظل هنا في الشارع

تحت جدار الصمت

نحدق في السروات ، وفي الجدران

والعيد الزائر ، ينظر ، يتساءل

أين ذهبتم

جئت إليكم في المنزل

لكن الدار كانت طللاً في "برقة ثهمد"

كانت صامتة ، وأنا فيها وأثافيها

لم تجيب

وأضاف العيد

جئت لانظر [1]

وهكذا ظل الشاعر يتفاعل مع القضايا الفلسطينية ويجسد مأساة التي أنشدها شعراً مؤثراً فكل الذي يحدث في فلسطين كان ينعكس في شعره وهو الذي يقول في مكان ما من الجليل الأعلى يستطيع الإنسان التمتع بمشهد بعض الأنقاض الأثرية جزاء مبلغ محدد من المال. ولكن ليس بعيداً من ذلك الموقع التاريخي يمكن للزوار أن يشاهدوا بالمجان أنقاضاً أخرى بمباني حديثة تماماً .. إنها بقايا القرية العربية (عكريت) التي دمرت تماماً قبل ربع قرن من الزمان[2] حيث يقول:

لم يبق مكان للنخلة والزرزور

والصورة يا جدي

تحت حطام الدار

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ١٦ ، ١٧.

٢ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ٧.

تحطمت الصورة

ولما غابت شمس اليوم المشؤوم

عدنا نحمل في الأعماق في دوالينا

عدنا والدور وسوح القرية

ترقص بين مآقينا

عدنا لا ندري أين سنمضي[1]

ويصور الشاعر مجزرة "شاتيلا وصبرا" في قصيدته (الدم يتكلم) التي يقول فيها:

شهداء من أرض فلسطين

شهداء من "شاتيلا" "صبرا"

سحقاً يا عرب القرن العشرين

إن خان البعض قضيتنا

وتلوث في وحل الطين

ودعانا "إرهابيين" و "سفاحين"[2]

وهو يتناول ما أصاب العرب في القرن العشرين من شتات وفرقة وخيانة ، يصور بعض ذلك بقوله:

سني خمس ، زدها عشرين

في عام الستين المعلون ، ولدت

أعلمتم في عام الستين

من أهل طردوا من "يافا"

من "غزة" في عمر العشرين

أبناء خيام إن شئتم

لكن فلذات فلسطين[1]

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ١٩ ، ٢٠.

٢ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ٢٩.

وهو يبدي حال الأمة العربية التي أصبحت متفرجة تجاه الغزو الصـــهيوني الذي استباح الدماء ، والأرض الفلسطينية.

ثم يصور الشاعر مأساة اللبنانيين ومدى الغياب العربي عن هذه المشـــاكل التي أرقت الشاعر فيقول:

أحرقتم وذبحتم كل الناس بلبنان

فهذا أمر مشروع

أو حق للإسرائيليين

أو دستم هامات الأطفال

بجنزير الدبابة

وأحلتم كل الدور إلى أنقاض خرابة

وذبحتونا

بالقنبلة العنقودية والسكين

هذا لبني صهيون مباح

حقاً يملكه "بيجن"

أو شارون السفاح[٢]

وبوجه عام تحمل هذه القصيدة نفساً إنسانياً ووطنياً نبيلاً ، وتنجح في لفـــت النظر إلى زوايا حساسة من النكبة الفلسطينية ، كما تتعمد التركيز علـــى جوانـــب المعاناة الفلسطينية ، وربما تبلغ أوجها في قصة "دير ياسين" التي تصـــف فظـــائع اليهود وغدرهم بواقعية صارخة. ولكن هذه القصص بوجه عام تفتقر إلى رؤيـــة سياسية سليمة ، ولعلها بذلك تعكس الموقف العام من النكبة حيث يقول:

هل رأيتم زحفنا

من روابي "دير ياسين"

هل شهدتم في الأعالي

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ٥٩-٣٠.

٢ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ٣٠.

كيف يسمو نجم "تشرين"

كيف تهتز جذوع النخل

من عصف الخماسين

وشباب عبقري

لم يزل في سن العشرين

يحمل الموت ويمشي

دون أن يخشى البراكين

في اليد الأولى سلاح

واليد الأخرى فلسطين[1]

نلاحظ أن الموضوع الفلسطيني وقد تحولت عندهم العاطفة إلى نقمة على مسببي النكبة ، والإشفاق إلى تحريض على الثورة والتمرد ، والغمز إلى كشف وفضح وتعرية والإشادة ببطولات المناضلين. وتبين جوانب مختلفة من النكبة أهمها تشرد الفلسطينيين ومعاناتهم وكفاحهم في سبيل الحياة ومغامرات للعودة. وبطولات الكفاح ضد العدو الصهيوني.

وهكذا أصبح الشاعر مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بكل القضايا التي تخص فلسطين متناولاً الاتجاهات العربية ومدى تشتتهم وعدم توحدهم أمام المستعمر الذي استعمر بعض الدول العربية كفلسطين مما كان له بالغ الحزن في نفسه الشاعرة.

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ٣٥.

المبحث الثالث

القضايا الفكرية

الالتزام الفكري:

أعانت ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية في العالم العربي على إحداث تغيير في الخط الفكري الذي يسير فيه الأدب ، وأهم تلك الظروف إحساس الجماهير بحاجتها إلى نوع جديد من الحياة بعد معانيها لأهوال الحرب التي اكتوت بها كل الشعوب ، سواء كانت محاربة أو غير محاربة.

وتناولت هذه الرغبة في التعبير عن الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية على حد سواء. ومن أجل ذلك كثرت الانتفاضات الثورية في عالمنا العربي محاولة الخلاص من قبضة الاستعمار. وبدأت ثمرات الفكر الاشتراكي تتدخل المجتمع العربي لتتيح فرصة الموازنة بين هذا الفكر الإشتراكي الجديد وبين الفكر الغربي الذي عرفه العالم العربي منذ فترة طويلة.[١]

ويتناول تاج السر بعض الأسباب التي أدت إلى ظهور الواقعية ناضجة في الأدب السوداني فيقول: "إن الشعر السوداني الذي لم يعرف جو الملوك ولا الأمراء ساعد على بروز عناصر إيجابية مبكرة في الأدب السوداني وأعطى الشاعر السوداني ميزة الملامسة للواقع والمظاهر المختلفة للحياة ، كما حدد هذا الوضع موقف الشاعر من القضايا الوطنية والإنسانية."[٢]

ويقول في قصيدة "إلى شعبي":

أنا معك

إن لفني البعد وصمت الحزن والحلك

أنا معك

أغنيتي عبر الثلوج والجبال تتبعك

---

١ تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان : محمد مصطفى هدارة ، ص ٢٨٩.
٢ نفس المرجع ، ص ٣٠١.

وكل ما أملكه من الأشواق لك

شعري معك

قلبي معك

خطوي معك[1]

لذلك أحب الشاعر بلاده ويولد هذا الحب الذي كنه لوطنه فكرة سامية في ذهن الشاعر وهي فكرة الإخلاص والوفاء فيقف الشاعر حبه لبلاده فلا يفكر في غيرها ويتبع هذا العمل لخيرها بل ووقف الجهود عليها ولأهلها. ويحكي الشاعر ههنا دور الشعب الذي هب غضباناً ينتصر للحق وهو يناصر أولئك الفتية الأوفياء المجاهدين ، هب الشعب يريد أن يعمل ويعمل مخلصاً لخيره وهنا ينادي الشعب الثائر والأمة القوية التي أحبت الحرية حباً قوياً جارفاً أودى كثيراً من بنيها موارد الهلاك.

لذلك تسير قضية التحرر السياسي جنباً إلى جنب مع قضية التحرر الفكري والإصلاح الاجتماعي ، ونرى للشاعر عدداً من القصائد في بث هذه الدعوة التحريرية الشاملة حيث يقول في قصيدته "مرثية الكلمات":

كل أغنية في دمي

في ظلال الوجود الرحيب

رؤى ترتمي

مثل طفل يتيم

يفتش عن قبلةٍ ، خلفها يحتمي

فهي تأتي وتذهب

ثم تموت

لتبعث في المأتم

كلماتي التي غردت للوجود الظمي

[1] ديوان القلب الاخضر، ص٨٦.

عالم من رقيً[1]

يقول النويهي: "من هذا نرى أن الواقعية الاشتراكية مذهب يخضع الأدب والفن لأهداف معينة يلزم الأديب والفنان بالسعي إليها والعمل على تحقيقها. فهو لا يؤمن بحرية الفنان المطلقة ولا بالقيمة الفنية الخالصة للفن وهو يعادي الفردية في الفن ويجاهد في القضاء عليها ، بل يتوجس خيفة من الشخصية القوية البارزة للفنان لإيمانه بأن الشخصية المثلى شخصية جماهيرية". ولذلك كانت الحداثة في شعره تتسم بالتجديد ولم تكن قصيدته مجرد جماليات وزخرفيات ، إنما كانت تجربة حية تصدر عن نبض يفيض بخبرة حية أي لم تكن مجرد شكليات جمالية[2] يجسد ذلك في قصيدته إلى الرفاق الأمريكيين حيث يقول:

يا أيها الرفاق يا أبطال
يا صانعي الحياة حيث يقطن الدمار
وحيث يكمن الشرار
والذرة الحمقاء في أدمغة الأسياد
تود لو تميت في سنا الجباه
تقطيبة الثوار
في "شارع السردين"
في مناجم الحديد
وحيث "هارلم العجوز"
دروبها تفوح منها أوجه الزنوج
والأعين البيضاء والهزال والأجسام
كأنها زنابق الربيع
تود لو يبع "توم" من جديد
لكي ترى هنا مواكب العبيد

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ٨٣،
٢ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١١٢ – ١١٤.

تمتد في تاريخها المهشم البعيد[1]

إن أحسن الشعر ما استند إلى الحقائق أكثر من العواطف والخيال البعيدين فكانت حصة العقل فيه أكثر من حصتهما ، والشعر شعور الشاعر المتولد من فعل للمحيط كبير التأثير في روحه فيبرزه في صورة ألفاظ موزونة تعرب عنه فلا يكون إلا صادقاً لا تشينه مبالغة ، وسهلاً ليس عليه من التكلف ما يهذب بصفائه وروعته.[2]

ويرى الشاعر أن التغيير العظيم لا يكون أبداً إلا بالغليان الفكري واليقظة الوجدانية. وهو يبحث عن الينابيع السخية التي أرهفت وعي الشعب وكان تاج السر يؤمن إيماناً قاطعاً بالتزام الأديب بخدمة قضايا أمته ومجتمعه ، فليس هذ في حد ذاته شيئاً جديداً على الشعر السوداني ، لأجل ذلك لا يريد استعادة الماضي بكل أوضاعه وتقاليده ، بل العكس يريد أن يغير جميع الأوضاع وتطويركل التقاليد وتشييد نظام تام الجدة ، حيث كان يريد أن يتحرر السودان من الاستعمار الانجليزي ولكنه أيضاً يريد أن يتحرر من قوى الرجعية الفكرية والجمود والاستغلال سياسية كانت أو دينية أو اجتماعية أو فكرية أو اقتصادية ، وهذا كله يوضح مدى أهمية قضايا مجتمعه ووطنه في نفسيته.[3]

ويظهر ذلك في قصيدته "المستنقع" التي يقول فيها:

عاصمتي المستنقع .. والمنبع

الروضة والفقر البلقع

عاصمتي الموتى والأحياء

الحيرى الثكلى ، والغرقى

هي أرض المولد والمصرع

***

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٩٤.

٢ النقد الأدبي الحديث في العراق : محمد مطلوب، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ط١، ١٩٦٨م، ص ٢٧٩.

٣ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١١٥.

تغفو الدنيا فيها ، من عهد "بعنخ"

ولا تصحو حتى يأتي المطلع

لا تستيقظ حتى تتصدع فيها

تلك الجدران المتكآت على الجذع[1]

لم يجد المجتمع السوداني بعد فترة من سيادة المذهب الرومانتيكي ، التقدم الذي كان ينشده في مجالات الحياة المختلفة ، ولم يكن الأدب الرومانتيكي يلبي رغبات المجتمع ولم يكن معبراً عن رغباته ، وذلك لأن الفردية أساسه والهروب من المشكلات الواقعية ركن ثابت فيه ، والاستعانة بالخيال والتهويم في عوالم بعيدة عن الواقع من أهم مقوماته.[2]

ويقول تاج السر إن المدرسة الرومانتيكية في السودان حملت بذور الثورة والتمرد على الواقع المستقر الرتيب ، ورسم روادها الطريق نحو الواقعية ويقول في قصيدته "الحرب والسلام":

قصائدي إليك

يا شاعر عصرنا القديم

أكتبها

أعصر فيها دمنا والروح

أكتبها

ظلال عصرنا على أسطرها تفوح

أكتبها

وأنت بيننا ترف طائراً حميم

هديل صوتك الأخضر

يطفي الجحيم[3]

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ٧٠.

٢ تيارات الشعر العربي في السودان : ص ٣٠١.

٣ النخلة تسأل أين الناس: تاج السر الحسن ، ص ١٢.

لكن تاج السر شاعر عرك الحياة وعركته فتحولت أفكاره فيها إلى مواقف عملية وفلسفته جسدت تناقضات الحياة ومأساتها ومفارقاتها وذلك في قوله:

الحرب لا كما رأيتها يا شاعري
في ذلك الزمان
جيوش نابليون
ما أضعفها وجبهة القتال
يحدوها شتاء روسيا
الثلج والأوحال
وفارس ملقى
ووجهه إلى السماء
يبحث عن سر الوجود
والآلهة الخرساء

***

من آسيا إلى أوربا
جبهة القتال
شمال أفريقيا وأثيوبيا
يحوطها الحريق
مات النساء والأطفال
ضل الحب في الطريق
الأرض أمناً مثقلة
هياكلاً عظام
فامشي الهوينى

لا تدس محاجر الصديق[1]

إنه شاعر كتب عن الحياة الممزوجة بالفكرة أكثر من كتاباته عن الفكرة المجردة ، ومن ناحية أخرى قد يحصر نفسه في نطاق ضيق من التفكير يكاد يعزله عن الحياة والناس ، ومع ذلك يظل الشاعر هنا وهنالك معبراً عن مجموعة من الناس هو وحدتهم الصغرى الناطقة باسمهم ، والمعبرة عن مشاعرهم. وهذا يعنيه ما يعطي عمله الوجداني الذاتي قيمة اجتماعية ما. ويواصل ويقول:

الحرب لا كما رأيتها

يشتد لونها سواد

الطفل في الثدي يداه كومتا رماد

وفي مدائني مات الجميع

الأم ، والطفلة ، والقطة ، والزهور

وقطرة الندى على الصفقة

والنسمة والعصفور[2]

إن الصدق الفني والتعبير الصادق عن الذات هدف إلى التعبير المحيط به ، وقد اتخذ هذا التعبير صورة من الواقع التي أشرنا إليها.

ولا يعني أن الشاعر لم يتخط حدود نفسه ومحيطها الخارجي. ففي هذه القصيدة عبر الشاعر ، فاحتوى شعره على عناصر واقعية خرجت به عن إطار الذاتية الضيقة إلى إطار المشاكل الاجتماعية الكبرى في عصره. بذلك ينتقل الشاعر من إطار الرفض السلبي ، أو من حالة التجميد ، للدعوة للثورة ، أو التغني بحياة الشعب العامل ، والدعوة للذود عنه.[3]

إن الحياة ليست عادلة في موقفها من الشاعر الذي كان من حقه أن يجازي نتيجة همومه ، وتفكيره العميق في قضايا مجتمعه والعالم من حوله ، ولكن الذي

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس : تاج السر الحسن ، ص ١٢-١٣.

٢ ديوان النخلة تسأل أين الناس : تاج السر ، ص ١٤.

٣ ابتداعية في الشعر العربي الحديث ، تاج السر الحسن ، بيروت دار الجيل ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، ص ٢٢٢.

لا يحدث ، فالشاعر يكافأ على أدائه بالمزيد من الفقر والضياع والأحزان ، بينما يحيا المحتالون ، والكذابون ، والزائفون في النعيم والمرح والحياة ملك أيديهم ولكنهاليست بأي حال من الأحوال ملكاً للشاعر الموهوب.[1]

هذه المشاعر الزاخرة بالبؤس ، والضياع وسوء التقدير يفيض بها شعر تاج السر حيث يقول في قصيدته "يأس":

كل شئ يهدمه عدم قاتل كالمنون

وتموت الفراشة

والروض يذبل تحت إحتراق الغصون

والحديد .. الجنازير يسحق قلب الحضارة

يقتل سحر الجفون

والبقاء لمن يظلمون

ومن يقتلون

ومن يحرقون

غير أنا سكتنا جميعاً .. وصحنا

كل شئ يهون

كل شئ يهون

الظلام يسود[2]

ولكن الذي لا يستقيم للشاعر هو الاستغراق في الفكر والسام معاً. المفكر لا يسأم ، والسئم لا يفكر ، لأن الفكر يشغل صاحبه عن الضيق والتعب والسأم.[3]

ويقول النويهي : "ونحن إذا أنفقنا بضع دقائق في التفكير الهادئ في طبيعة الواقعية الاشتراكية فإننا سرعان ما ندرك أن من السهل أن يساء فهمها أو يساء استعمالها ، فهي تتضمن ثلاثة أخطار عظيمة يغري الأدباء بالوقوع فيها:

---

١ شعراء الوطنية في السودان : صلاح الدين المليك ، ص ٨٣.
٢ ديوان الأتون والنبع ، ص ٨٥.
٣ الابتداعية في الشعر العربي الحديث ، ص ٢٦.

أولها: أن يبالغ الأديب في نشدان الأهداف الإنسانية العريضة الشاملة إلى حد ينسى طبيعة بيئته المعنية وأوضاع شعبه الخاصة ومشاكله المحدودة.

ثانيها: أن يعني الأديب بهذه الأهداف الجماعية إلى حد أن تفنى شخصيته فيها.

ثالثها: أن يوجه الأديب كل اهتمامه إلى خدمة تلك الأهداف والمناداة بها والدفاع عنها بحيث يتحول إلى داعية سياسي وينسى أن عنايته الأولى كأديب يجب أن تبذل في استكشاف الطريقة الأدبية الناضجة التي تصور تلك الأهداف تصويراً يدخل في دائرة الأدب.[1]

أما فورمة الشعر وقاموسه فمعروفان ، وقد ضج منهما القراء وجأروا بالشكوى لأن أصحاب الموهبة الفقيرة التي كانوا يستغلونها في الماضي في كتابة قصائد التهنئة بختان أو ميلاد طفل أو ترقية أحد الأفندية قد أصروا على أن يتناولوا قضايا كفاح الشعوب ويتحدثوا عن مشاكل الناس.[2]

ويقول الأستاذ عبد الصبور: "لعل السبب الرئيسي أننا قد واجهنا بعد الحرب ثقافة محدثة هي الثقافة الاشتراكية ، وواجهنا كما كان آباؤنا يواجهون ثقافة المستعمر ، فاكتفينا منها بالقشور دون الجوهر واللباب ، وما أخذناه لبسناه دون أن نعيد تفصيله علينا ، ولم نواجه هذا الرافد الخصب بمصريتنا حتى يمتزجا في وحدة حقيقية صلبة كاملة. ففي الأدب عرفنا أسماء الأدباء دون أن نقرأ الأدب وفي النقد عرفنا الاكليشيهات دون أن نقرأ ما تحتها ، وفي السياسة حلقنا في سماء المذاهب دون أن نقر أقدامنا على أرض مصر الصلبة ، وكانت النتيجة أن ازدهرت القصة الفقيرة لا قصص الفقراء ، والنقد الهاتف لا الهادف."[3]

والواقعية الاشتراكية التي ينتمي إليها تاج السر يمكن تلخيصها في الشعار الذي ذاع صيته في السنوات الأخيرة وهو "الأدب في سبيل الحياة" وهذا يعني

---

١ الاتجاهات الأدبية في السودان ، ص ١١٦-١١٧.
٢ الاتجاهات الشعرية والنثرية في السودان ، محمد النويهي ، ص ١١٨.
٣ الاتجاهات الشعرية والنثرية في السودان ، محمد النويهي ، ص ١١٨.

تقرير واقع الحياة وتطويرها ودفعها للأمام ، وأصبحت الواقعية أكثر وجوداً عند تاج السر وذلك من خلال تضامنه مع الشعب ويتجلى ذلك في قصيدته "الشاعر والطغاة" التي يقول فيها:

يا طغاة العصر أعداء الأماني

والأغاني

لا تقولوا "شاعراً طلق اللسان"

"أنفه يندس في غير شؤونه"

"راسفاً ما زال في قيد جنونه"

إنني أملك حقي في التدخل

فلقد مر من العمر زمان

وملكتم أنتم حق التدخل

شعبها ثروتها في يدكم

صوتها في صوتكم ، ذاب ، تهدل

فاصمتوا قد جاء دوري دورها

أصمتوا

صوتها في شعري الخالد جلجل[1]

فالشاعر عبر عن تلك القدرة الخارقة التي يتمتع بها الفن الأصيل ، على البقاء والخلود ، وإن توصل الشاعر إلى تلك النتيجة عن طريق التقرير الذي جاء كخاتمة منطقية للصور المتنوعة ، والحوار الذي أورده في قصيدته ، وهذه القصيدة يسيطر عليها حزن هادئ ، أما في قصيدته "خواطر من مذكرات مواطن من مدينة ن" التي يقول فيها:

صاح مغني الشعب

أين سواقينا الخضراء

غابت فوق ضباب أسود

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١١٨ ، ١١٩.

غطى سلم الصحراء

يدعى النفط

أتانا النفط ولكن

نحن ذهبنا نبحث عنه هناك

تركنا الريف وراء الظهر

وهمس النفط يناجي النهر

صدأ الفأس

وهن البأس

نضب الكأس[1]

ولكن هذا التطور الذي أراده الشعراء استغرق وقتاً طويلاً حتى تتشربه نفوسهم ، وتستوعبه عقولهم ، فظلت دواوين أولئك الشعراء تحمل صور الصراع بين القديم المنبوذ بما فيها من تقاليد مملة وشعر مناسبات فارغة وعواطف زائفة ، والتلهي بالأحاجي والزخارف البديعة وبين الجديد الذي يعبر عن نفس الشاعر ، وقضايا الإنسانية والوطنية ويسقط عن كاهله أساليب الزيف والبهرجة في الشكل والمضمون على السواء.[2]

ونختلف مع الدكتور هدارة فيما ذهب إليه من أن الشاعر تاج السر الحسن قد تأثر بالاشتراكية المادية وذلك من خلال قوله : "إن الإشتراكية المادية ، قد تركت أثراً بالغاً في مفهوم الدين عنده ، فما معنى الربط بين الدين والفقر ، والإيمان والجوع وكأنهما متلازمان في القرية السودانية ، إلا أن يكون سخرية من الشاعر واستهزاءاً ، أما ذكر عدم استطاعة دخول "الكفر" فهو من قبيل التمويه لأنه قد يعني عند الشاعر الغنى عينه ، يقول تاج السر الحسن في قصيدته

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ١١٢.

٢ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ٩١.

"مهاجرون للحج" التي يتحدث فيها عن مشاهد الحجاج الذين يتكففون الناس حتى يصلوا إلى بيت الله الحرام سعياً على الأقدام في أحيان كثيرة[1] حيث يقول:

عن قصة الحجيج

أيامنا يا أيها الصغار

وفي بلادنا قد دخل الكفر

ولم نكن نملك غير هذه الأقدام

والحب للنبي

محمد عليه ، صلى الله والأصحاب

ومكة الكريمة الأعتاب

والمقام

وزادنا بليلة من الذره

ومسبحه

وقرعتان

وكان لي عكازة

وتحت أبطي حربتان

وكومة من الخرق

والسحب الدكناء تنقش الأفق[2]

وإذا تأملنا النص فإنه لا يعدو أن يكون مجرد تصوير للحجيج وهم يحملون بعض الأمتعة مما أن صورة الفقر صورة واقعية لا تؤيد ما ذهب إليه الناقد هدارة. ثم يقول الشاعر:

وقد نوينا باسمه العظيم الحج والسفر

وحولنا تجمع الكبار

وصبية صغار

---

١ تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان : محمد مصطفى هدارة ، ص ٤٩٧ – ٤٩٨.

٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٣٤ ، ٣٥.

ورددت قريتنا زغرودة الفرح

بالبركات والوصول والسلام للنبي

وأن تقضى الحاجيات للجميع بالنبي[1]

إن الشاعر صادق في تصويره لحال القرية التي تكتسي بـــالأفراح عنـــدما يقوم زوار النبي (ص) وهم يوعدون القرية إلى الحج وهو تصوير صادق وحقيقي يبين الحب الكبير من الشاعر للنبي (ص) وهو حب صادق.

وفي مشهد آخر من القصيدة يصور لنا الشاعر حال القرية التـــي ســـادها الجوع بسبب دخول المستعمر عليها وسلب أموالها وهم يدعون ويســـألون الله أن يرفع عنهم الظلم وينزل عليهم الرخاء ويسأل الله لها الرفعة والرخاء حيث يقول:

كان أحمد العجوز

تجيش في خاطره الغريب

والقرعة الغبراء في يديه

والقرية التي تنام في السهول

والجوع حين أجحف السماء

والجراد قد مزق الأشجار والحقول

والجدري فوق وجه أخته العذراء

وابنته التي احتواها القبر في الشتاء

وعربات الكفر

وهي تعبر القرى وتجمع الأموال

يعود يسأل الإله

والقبة الخضراء والمقام

أن يرفع البلاء

ويهب الحياة للبلاد والرخاء[2]

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٣٥.

٢ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٣٦ ، ٣٧.

نحس هنا مدى تعاطف الشاعر مع أهل القرية التي تعاني مأساة حقيقية وهي استيلاء المستعمر على ممتلكاتها ، لذلك لم تفن شخصية الشاعر في غنائه للجماعة. انظر إلى قوله:

كان أحمد العجوز

وزوجه

وفي اليدين قرعتان

يسألان الله يشحذان

يا رب يا كريم

وهكذا يمشون في شوارع الأطلال

يسألون

لحج بيت الله والنبي

والأبواب يحكيان قصة الحجيج

والقبة الخضراء والمقام

والزحام[1]

ولا يكاد محمد مصطفى هدارة يبتعد كثيراً عما ساقه من اتهامات سابقة للشاعر فهو يقول: "انظر إلى هذه الصورة الأخيرة "يمشون في شوارع الأطلال يسألون لحج بيت الله والنبي" لتدرك روح السخرية المرة التي تنساب فيها. كأن هؤلاء المؤمنين تنشق عنهم حفريات التاريخ ، إذ لا وجود لهم في الحقيقة إلا أن يكونوا كذلك ، وكأنه يحمل عقيدتهم مسئولية تجردهم وفقرهم. ومما يؤكد هذا الفهم أنه أنهى قصيدته برسم الصور المؤلمة نفسها التي خلعها على قريته."[2]

الجوع ما يزال

قد شحت السماء

والجراد

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٣٨.

٢ تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، محمد مصطفى هدارة، ص ص٤٩٨، ٤٩٩.

قد مزق الأشجار والحقول

والجدري فوق وجه أخته العذراء

وكوخ زينب الأرملة العجوز

قد مات في الحريق[1]

إذا تناولنا القصيدة من الأول نجد أن الشاعر يصف حال الخريف في القرية أما في الأبيات التالية فيصف لنا حال الحجيج في زمن لم تكن فيه وسائل المواصلات متوافرة وكان الحج سيراً على الأقدام أو على ظهور الإبل ، وهو وصف دقيق انظر إلى قوله : "ورددت قريتنا زغرودة الفرح ، بالبركات والوصول والسلام للنبي" وذلك يدل على حب المجتمع السوداني والشاعر للنبي صلى الله عليه وسلم. وهنا لا بد لنا من ذكر شئ مهم هو أن الشاعر لم يتكلم عن قريته وإنما هي حكاوي في زمن كان يصعب السفر فيه ، أما زمن الشاعر فكانت المواصلات متوفرة لحد ما مما سهل السفر ، وهنا أتينا بموضوع القصيدة حتى نرد على محمد مصطفى هدارة حول تشكيكه في عقيدة الشاعر من خلال هذه القصيدة ، ولنا أن نسأل هل أراد الشاعر الاستعطاف مع الحجيج في أول القصيدة ، والاستهزاء بهم في آخر القصيدة كما أن الفقر صورة واقعية لا يؤيد ما ذذهب إليه الناقد كما ذكرنا هذا سابقاً. مع العلم أن الشاعر صوفي. انظر إلى قوله:

هناك دفنوا بابكر الشقيق

جدي الكبير بابكر

أذكر وجهه واللحية المدورة

وأثر الصلاة في جبهته ، والمصحف العتيق

يرتل القرآن

ويقول في قصيدة أخرى:

لقد قتلوا أهلنا المسلمين الأوائل

أولئك من أوقدوا ليل عالمنا بالمشاعل

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٣٩.

ومدوا علينا ضياء العلوم شراعاً

من الصلوات

السلام علينا ، عليكم ، عليهم

على كل هذا الوجود المناضل[1]

يقول تاج السر الحسن عن أثر الصوفية في أصله: "وكانت عراقة أسرتي الدينية والجو الغيبي الذي يحيط بنا أثر كبير في تكويني فثبتت في أعماقي أحاسيس ملتهبة وأخذت أشعاري تحلق في عالم بعيد."[2]

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ٦٤.

٢ أصول الشعر السوداني ، عبدا لهادي الصديق، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط١٩٨٩،١م ، ص ١٦٠.

الفصل الثالث

قضايا الشكل في شعر تاج السر الحسن

المبحث الأول : اللغة والأسلوب

المبحث الثاني: الموسيقا الشعرية

المبحث الثالث: الصورة الفنية

المبحث الأول

اللغة والأسلوب

ينبع تأليف الشعر من إحساس قوي ، لذلك يحتاج إلى لغة خاصة متجانسة مع هذا الإحساس وتمتاز لغة الشعر بانسجام اللفظ مع المعنى خاصة وأن للألفاظ موسيقا آسرة تحقق الرقة والسهولة والفخامة والجزالة.

وقد نالت اللغة اهتماماً كبيراً من النقاد العرب فاهتموا باللفظ والمعنى معاً، يقول ابن رشيق القيرواني: "اللفظ جسم وروحه المعنى."[١]

وكذلك يقول أبو هلال العسكري الذي يميل إلى مناصرة اللفظ بالمعنى حيث يقول: "إن الكلام ألفاظ تشتمل على معانٍ تدل عليها وتعبر عنها فيحتاج صاحب البلاغة إلى لغة انفعالٍ مرنة."[٢]

ويقول عبد القاهر الجرجاني: "الكلمة المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف لا يمكن أن تكون شعراً من غير أن يحدث فيها نظم."[٣]

والكلمة أداة الشاعر في رسم صورته الفنية ونقل تجربته الشعورية والمعبرة عن مكنونات الشاعر ، فالألفاظ ليست وعاءاً لنقل الأفكار فحسب ولكنها تحمل في ذاتها معنىً عقلياً ، يحتشد فيه قدر كبير من المشاعر والأصداء والظلال بل تكون محملة بتراث متراكم من تجارب الأمة وأحاسيسها المختزنة وأصداء ذكرياتها وظلال تجاربها.[٤]

وترجع خصوصية الشعر واختلافه عن غيره من أساليب القول إلى تلك العلاقات والارتباطات بين المفردات، وما تخلقه هذه العلاقة من صور وأخيلة. ومهمة الأديب الناجح أن يعمل على تحطيم الارتباطات العامة للألفاظ تلك

---

١ العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، ج ١ ، ص ١٢٤.
٢ الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٩٨١ ، ص ٨٤.
٣ دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، لبنان ، بيروت ، دار المعارف ، ١٩٩٤م ، ص ٣٠٥.
٤ الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، عز الدين إسماعيل ، بيروت ، دار الفكر للنشر ، ط١ ١٩٥٢ ، ص ٣٢٠.

الارتباطات التي يخلفها المجتمع ، وأن يخرج عن السياق المألوف إلى سياق ملئ بالايحاءات الجديدة [١]

انظر إلى قول الشاعر تاج السر من قصيدته "القرن الأفريقي":

كانت سيدة من أثيوبيا

تملأ كل الأرض شباب

يا أصحابي

في أطراف القرن الأخضر

يا أحباب

هل شاهدتم تلك اللوحة

في أبهاء القصر الخلاب

أرأيتم كيف تلاشت

خلف ضجيج صرير الباب[٢]

يسير شاعرنا من حيث انتقائه للألفاظ والمفردات متخذاً منها وسيلة للتعبير عن كل عاطفة يود تصويرها مستصحباً معه قول ابن الأثير الذي يقول فيـــه: "إن الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويـــف وأشباه ذلك."[٣] يقول الشاعر:

وأصحابي الأعزاء الحجارة

أنتم يا من بنيتم

في ربوع الشرق أسباب الحضارة

وستبقى لكم روح فلسطين

وإيمان بها يذكى لدى الروح البشارة

---

١ قضايا النقد الأدبي والبلاغة ، د. محمد زكي عشماوي ، ص ١٩.

٢ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ١٣٠.

٣ جوهر الكنز، نجم احمد ابن الأثير، تحقيق محمد زغلول سلامة، الإسكندرية، منشأة المعارف د.ت ص٦٢.

إنهم لن يستطيعوا

قتل هذا العزم فيكم

ليس في إمكانهم نفي الحجارة

فأجبنا

أيها الآجر والأحجار

يا معجزة العصر الذليل

يا مذهلة الصمت الطويل[١]

يصور الشاعر المقاومة الفلسطينية التي سلاحها الحجارة ، بألفـــاظ قويـــة جزلة. يقول:

بالأمس هجرت القرية

كانت ذكرى أرض عطرية

في ساحات السودان الكبرى

بارا أو إن شئت كبوشية

أو حتى إن شئت المحمية

غابات ومروج مروية

ساقية أيقظت الليل

أغانيها الفجرية[٢]

ولو تأملنا هذه اللغة التي صاغ بها الشاعر ، مشاعره في القصيدة يمكننـــا القول إن شاعرنا قد وفق كثيراً في انتقائه للألفاظ الشعرية فجاءت دقيقة واضـــحة رقيقة فصيحة قوية وجزلة تعبر عن ذوق الشاعر.

نجد إن الشاعر تاج السر قد اعتنى باللفظ اعتنائه بالمعنى فجاءت ألفاظـــه جزلة قوية سهلة ، ومعانيه رقيقة ، مؤثرة موحية بدلالاتها مجسمة للوحاتها. يقول

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ٢٧.

٢ ديوان النخلة تسأل أين الناس: تاج السر الحسن ، ص ١١٠.

في قصيدته "وادي النيل" وهي عبارة عن رسالة إلى صديقه نجيب سرور حيث يقول:

صديقي دون وادي النيل أسوار على أسوار
صباح الخير ، عفواً
ربما ما قالها إنسان
وأنت هناك لا أهل وأنت هناك لا خلان
حملنا يا نجيب على المدى في قلبنا الأشعار
حملنا النيل والشطآن
والأهلين والسمار
هنا القاهرة الخرطوم أو إن شئت أم درمان
هنا أسوان
صباح الخير ، ماذا لو تلاقينا على الدوار
وغنينا موالين أو أسمعتنا الأشعار[١]

يقرن صلاح الدين المليك تجربة تاج السر بالشاعر جيلي عبد الرحمن ويقول عنهما: "لقد لوحا لهما براية المجد فهرعا إليها ، وكان وصف العبقرية من نصيبهما وأنهما لا يشكان في أنهما شاعران مجيدان عبقريان."[٢]

فهو يختار ألفاظه ومعانيه الخيار الأمثل والأنسب لكل موضوع يطرق باب الحديث عنه يظهر ذلك في قصيدته "نحن والكلمات" التي يقول فيها:

صديقي الشعر ذلك الصاحب الغدار
مللنا ومللناه وضاق بنا رحيب الدار
وحتى الأخوة الكلمات ذهبت
ولم يعدن يثرن في أعماقنا الذكرى
تركن الصمت في أعماقنا يقتات

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ٢٥.
٢ جيلي عبدالرحمن : شاعر الوقت في سيياق آخر ، ص ٤٥.

وثرثرة المقاهي الزهر قرب النيل

زاد الغربة الممزوج بالآهات

مضى الأصحاب

لكن لم تزل أصواتهم

رنانة الضحكات[١]

يرثي الشاعر في هذه القصيدة الشاعر المصري نجيب سرور ، وقد كانت تجمعهم مودة وصداقة حميمة ، ولقد وردت الأبيات بأسلوب أقرب إلى التقريريـــة وبألفاظ سهلة.

يقول أحد الشعراء النقاد عن المباشرة والتقريرية في الشعر: "إننا بالطبع لا نريد تزكية التقريرية والمباشرة والخطابة في الشعر، ولكننا لا نريد أن يهرع النقاد إلى اعتبارها مآخذ نقدية قبل أن يتفهموا دورها في سياق النص الشعري."[٢]

ويتوقف الناقد محمد مصطفى هدارة عند تجربة تاج السر، متخيراً قصيدته "أكتوبر" التي يقول فيها:

أنا من وادي النيل الخصب

ورفاقي السمر على الوادي يبنون صباحاً للشعب

هتفوا باسمك يا أكتوبر من كل حنايا القلب

ولست من الدون الهادي

أنا من أفريقيا بلدي تشوبها نار الأصفاد

لكن يدي السوداوين تمردتا عبر الوادي

عانقتا "موسكو" و "الصين" وكل بلاد الأمجاد

والتقتا بخيوط الشمس المسكوبة في الغرب الصادي[٣]

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ٢٤.

٢ التجربة الشعرية عند فدوى طوقان ، ص ٥٣.

٣ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، ص ٣٠ ، ٣١.

فيقول: "تلاحظ أن تاج السر في هذه القصيدة يلتزم أسلوباً تقريرياً ظـــاهراً ويتخلى عن كل وسائل الإبداع التي يلجأ إليها الشعراء المجددون ليبتعـــدوا عـــن التقليد والتقريرية وآفة شعر تاج السر هي تلك الذبذبة الواضحة بين عناصر التقليد والتجديد في الشكل."[1]

ونجده حين يرثي يغوص في الألفاظ لينقي ما يوافق هذا اللون من تعبيرات الحزن الذي يجيش في صدره ولا يصطنع ذلك اصطناعاً ، وإنما يؤكد ذلك أثـــر الحزن على الفقيد ونلمس ذلك في قوله وهو يرثي صديقه ورفيق دربه جيلي عبـــد الرحمن في قصيدته "موت صديق":

قد مات في عدن
ذاك الذي عرفته في شواطئ الجزيرة
ودمه لون شطآن الخليج واليمن
وقبل أن يطلق فوق صدره الرصاص
تذكر النيل وأرض دنشواي
وظل ظهران يغطي ردهة الزمن[2]

ففي هذه الأبيات نلمح أثر الحزن والعاطفة والفقد الشديد عند الشاعر وقـــد صاغها بلغة بسيطة غير معقدة بأسلوب سهل. فالأسلوب الأدبي يتباين بين شـــاعر وآخر وذلك من حيث الصياغة بين السهولة والغرابة والبساطة والتعقيد ، نجـــد أن الشاعر في هذه الأبيات يتبع أسلوباً سهلاً لأن لكل أسلوب صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره وكيفية نظرته إلى الأشياء وتفسيره لها وطبيعة انفعالاته تجاهها ، فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب.[3]

تظهر في شعر تاج السر الحسن القومية السودانية وقد نجـــح فـــي صـــهر عناصر تجربته الإقليمية وخرج بها من نطاقها المحدود ، وذلـــك يعنـــي وعـــي

---

١١ تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان : محمد مصطفى هدارة ، ص ٤٩٢.
٢ ديوان لنخلة تسأل أين الناس: تاج الس الحسن ، ص ٣٧.
٣ الأسلوب: أحمد الشايب ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة ٦ ، ١٩٦٦م ، ص ١٣٣-١٣٤.

الشاعر الدقيق لقيمة الموضوع الذي يعالجه.[1] وإذا وقفنا عند قصيدته "موت فاطمة بنت الصادق" التي رثى فيها الشاعر جدته لأمه حيث يقول:

أعلم أن الموت سوف يأتي

سوف يحصد الجميع

لكن بأي أرض

لم أجب ، ولم تجب على السؤال

ولكن جدتي العجوز

بنت الصادق الخضراء

تدرك أنها تموت في الجزيرة

مدافن الأغبش

حيث يكبو الديس ، فوق النيل

فموجة في الظل

والأخرى على الظهيرة

وأنف تمساح تشم خضرة الأصيل[2]

يوظف الشاعر مفردات اللغة وألفاظها التي نستخدمها في حياتنا اليوميـــة ، فهي لا تحتاج أن يُبحث عنها في القاموس لأنها سهلة من حيث النطق والمعنـــى ، ولكنه يسوقها إلينا في أسلوب سهل رقيق لأنه يخاطب بها أهل الريف الذي عاشت فيه جدته فكان لا بد أن يأتي لهم بما يفهمونه وكذلك يخاطب المتعلمين ، ولكن مع بساطة الأسلوب نجد تعبيره نابع عن إحساس صادق.

أما عندما يعمد إلى شعر الوطنية فيختار من الألفاظ ما يدل على المجـــد ، وحب الوطن حينما يناشد شعبه لحماية الوطن في قصائده التي يسوقها في أسلوب سهل مؤثر ، أما العبارات فقوية ومؤثرة في النفس ، انظر إلى قوله في قصـــيدته:

---

١ الشعر في السودان ، عبده بدوي ، ص ٢٢٨.

٢ ديوان النخلة تسأل اين الناس، ص٤٣

"فلتتحرر أنجولا" التي يصور فيها سفن المستعمر وهي تحمل الرقيق إلـــى بلـــدها حيث يقول:

عند شط البحر يعلو السفين

جداره هذا الحديد الذي يخطف نور العيون

أبراجه الزرقاء نحو السماء

تسمق في كبرياء

العلم الزاهي عليه المسيح

صليبه أحمر أدماه لون الجروح

الريح في نسجه أقدامها تستريح

باخرة جاءت من البرتغال

تجرها في الصمت ريح الشمال

ضجيجها عبر هدوء المحيط

صداه نسر في أعالي الجبال[1]

إذا نظرنا إلى هذه الأبيات التي يصف فيها الشاعر السفن التي تحمل الرقيق نجده قدوصفها وصفاً جيداً لأنه ساقها بألفاظ قوية جزلة تتضح من الانسجام فـــي الكلمات.

يقول محمد مصطفى هدارة عن هذه الأبيات: "إن الشاعر يوائم بين الشـــكل والمضمون في نسيج رائع ، مستخدماً فيه الطاقات التعبيرية للألفاظ."[2]

وفي قصيدته "من البعيد" التي يمجد فيها شهيد الثورة قرشياً ، تتضح قومية الشاعر وحبه الكبير لوطنه وذلك لأنه يصفه وصفاً دقيقاً وقد ساقه هذا الحب بلغة سلسلة عذبة وفي أسلوب جميل ونغم متناسق حيث يقول:

سلاماً يا رؤى وطني البعيد

ويا طيوف الغاب

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٤٣.

٢ تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان : محمد مصطفى هدارة ، ص ٤٩٤.

سلاماً تنضب الصحراء ممتداً على الأحقاب

ونخل أحمر الأعناق ، في شمس الغروب يلوح

وأسراب من الكركي في الشطآن

قديماً حلقت والآن

تطوف بعيدة عن أرضها والسوح

****

لقد مرت مرور الضيف

رؤى أكتوبر الحمراء كانت في دياري طيف

ووجهك يا قرشي[1]

ويتوقف الناقد صلاح الدين المليك على تجربة تاج السر الحسن متخذاً قصيدته "من البعيد" الذي يرى فيها أخطاء نحوية فيقول : "إذا قسناها بالمعايير الفنية الأدبية البحتة فإننا واجدون فيها بعض مآخذ في الشكل والمضمون. من مآخذ الشكل إغفال قواعد النحو إذ في أبياته أخطاء نحوية ، وذلك في قوله : "وفيضاً من فؤاد النيل" نصب "فيضاً" ولا نجد سبباً واضحاً للنصب. وكقوله : "رؤى أكتوبر الحمراء كانت في دياري طيف" ويحق لنا أن نتساءل عن خبر "كان" أهو "طيف" فلماذا لم يجئ منصوباً إذن كما تقول قواعد النحو ، وإلا فأين خبر هذا الناسخ ، وكقوله : "وداعاً يا قبور الحي فليطغى عليك الماء" وهذا الاتصال يوجب الجزم."[2]

نجد أن المآخذ التي أخذها صلاح الدين المليك على تاج السر تكاد تكون صائبة ، ولكن الذي يغفر لتاج السر هو انفعاله الشديد تجاه قضايا وطنه والإنسانية مما جعله يهتم بالمضمون ، دون الشكل مع العلم أنه أستاذ للغة العربية وله دكتوراه فيها ، وذلك في قوله:

ومضة بارق من شعبنا الخلاق

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٢.

٢ شعراء الوطنية في السودان : صلاح الدين المليك ، ص ٢٤١.

وفيضاً من فؤاد النيل

أما في قصيدة الشاعر "فلتحرر أنجولا" التي يقول فيها:

لم أدر أن الشمس أم الضياء

في لونها الزاهي يغطي الفضاء

أبيض مثل الثلج مثل الحليب

تنشر في جسمي هذا اللهيب

تضمني في عناق

الشمس أمي تضمني في اشتياق[١]

يأخذ صلاح الدين المليك على تاج السر الحسن في قصيدة "فلتحرر أنجولا" وذلك في قول الشاعر : "أبيض مثل الثلج مثل الحليب" يقول صلاح الدين المليك: "عن لون الشمس. أبيض مثل الثلج ، مثل الحليب. فهل لون الشمس أبـــيض؟ وإن كان فهل هو في بياض الحليب والثلج ، وضوء الشمس أهو أبيض ، ثم ما الفـــرق بين لون الشمس وضوئها لقد أغرب الشاعر ههنا بلا شك."[٢]

الذي لا نتفق فيه مع الناقد صلاح الدين المليك هذه المآخذ التي أخذها على الشاعر فهي تؤدي إلى ذهاب بريق الشعر وتجعله تقصي للحقائق. ولنا أن نســأل هل الشاعر لا يعرف لون الشمس ، لو تتبعنا الأبيات نجد أن الشاعر ذكــر لــون الشمس في بيت صريح حيث يقول في نفس القصيدة: "في لونها الزاهــي يغطــي الفضاء." مع العلم أن الضمير الهاء يرجع إلى الشمس.

وكذلك يأخذ عليه في نفس القصيدة التي يقول فيها:

وفي القرى

عجائز يبكين عند المساء

"من يذهب اليوم لجني الثمار"

"من يحرس الغابة إن طوفت"

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٤١.

٢ شعراء الوطنية في السودان : صلاح الدين المليك ، ص ٢٤٣.

في الليل أفيال بقرب الديار

من يشعل النار ومن حولنا

الناموس والأسود ، والأشرار

من يعتني بالصغار[١]

يعلق صلاح الدين المليك ويقول: "يتخيل الشاعر ههنا حال قرية أفريقية بعد أن اختطف تجار الرقيق رجالها وخلفوا نساءاً عجائز لا يقوين إلا على الندب والتحسر لكن من العجائز من تحمل الراية وتبث الحماس في الصغار وتقوم في نفس الوقت مقام العائل الغائب ، أما شاعرنا فقد صورهن ضعيفات مستجديات وكأنه أراد استجداء العطف ولم يرد إثارة الحماس. إننا لم نحس أثناء قراءة هذا الشعر انفعالاً قوياً جاشت به نفس أحد أولئك الشعراء فانتقل من دخيلته إلى عباراته إنما سردوا مآسي أفريقيا وقرروا مظالمها تقريراً فجاءت العاطفة في قصائدهم تلك فاترة."[٢]

إذا نظرنا إلى المآخذ التي أشار إليها صلاح الدين المليك على شعر تاج السر تكاد تكون نوعاً من النقد الذي لا يقوم على نظرة شاملة. وذلك لأنه لا يأخذ الموضوع كاملاً بل على أجزاء صغيرة دون أن يربط بعضه ببعض ولو ربطها لاستبان له المراد من الموضوع. ونجد أن القصيدة تقوم على الدفاع عن حياض الوطن ، إذا تركنا مضمون القصيدة ونظرنا إلى عنوانها "فلتتحرر أنجولا" لاكتفينا. فكيف يقول إن القصيدة تدعوا للتحسر ولا تدعوا للحماس.

هذه الاختيارات الشعرية التي أتينا بها ما هي إلا نتاج تصويري يمثل منبعاً من منابع لغة الشعر الحديث والقديم معاً ، وما جاء هذا التباين إلا لاختلاف التعبيرات الأدبية في تناول الأغراض المختلفة ، وقد ساعدت قريحة الشاعر وملكته اللغوية على اختيار لغة سهلة جزلة ورصينة تكاد تخلو من غريب الألفاظ وحوشيها ، وأما من حيث المضمون فقد جاء في غاية الأهمية وذلك لأنه لم يكن

---

١ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، ص ٤٧ – ٤٨.

٢ شعراء الوطنية في السودان : صلاح الدين المليك ، ص ٢٤٤.

من خيال الشاعر بل كان من الحياة اليومية[1]. انظر إلى قول الشاعر في قصـــيدته "الأبنوسة":

المدن الكبرى

مدخنة .. مصباح

سوق اللحم .. الخضر

وآلاف الأشباح

أسماك ملقاة في فك تمساح

****

الإنسان قري

تمشي في مدن الأتراح

ونخيلاً لا جذع له

يتجول في الساح[2]

ويقول محمد مصطفى هدارة: "لا نرى تاج السر يستخدم التعبير بالرمز أو الأسطورة أو الحدث ، ولا يحاول أن يميل بعض ميل إلى الأسلوب الدرامي ، وإن كنا قد رأينا محاولة قصصية له في قصيدته الطويلة "فلتحرر أنجولا" ولهـــذا كلـــه نرى الشاعر يعتمد على الأساليب البلاغية المألوفة ، ويقع في معظم الأحيان فـــي آفة تكرار التشبيهات والاستعارات التي لا نجد فيها علاقات بعيدة أو جديدة."[3]

إن التعبير بالرمز والأسطورة أساسهما أنهما يقومان على الهـــروب مـــن مواجهة الواقع وهذا يتنافى مع الشعر الواقعي الذي اتخذه الشـــاعر مـــذهباً. أمـــا الأسلوب الدرامي فانه في بعض الأحيان يقوم على تزيف الواقع وهذا لا يتماشـــى مع الشعر الواقعي. أما التشبيهات والاستعارات وهي من مقومات الشعر بل هـــي جوهر الشعر وهي التي تميزه عن غيره من الكلام المنظوم.

---

١ أصول الشعر في السودان : عبد الهادي الصديق ، الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ط١ ١٩٨٩م ، ص ٧٨.

٢ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ١٥.

٣ تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان : محمد مصطفى هدارة ، ص ٥٠٢.

للشاعر أن يستخدم كل أسلوب صحيح سواءاً أكان غريباً أم معهوداً "أليفــاً" وليس أن يتكلف في الأساليب. ولا أنكر أن الشعر من قواميس اللغة ، ولكن لــه وظيفة كبيرة غير وظيفة القواميس. وقد قسم بعض الأدباء الكلمات إلــى شــريفة ووضيعة ، ويحسب أن كل كلمة أكثر استعمالاً صارت وضيعة والعكــس. وهــذا يؤدي إلى ضيق الذوق وفوضى الآراء في الأدب. وقد تكون العبــارة الملائمــة بالكلمات أكثر أسلوباً وديباجة وأقل متانة من العبارات السهلة التي ليس بها غيــر المألوف من الكلمات فينبغي على الشاعر أن يتطلب القناعة فيقتنع.[1] ويتضح لنا أن الشاعر يختار ألفاظه ومعانيه بدقة فالشاعر يقول في قصيدته "السلالم المحطمة":

ماذا تريدون من الأديب

هذا الدجى يحوطه

ودهره العجيب

يلقي ظلاله على فؤاده

وفود رأسه يشيب

ماذا تريدون

لآلئاً من بحره العميق

سلة قمح ملئت

من حقله الخصيب

أو وردةً فائحة العطر

أظلت مرج قلبه الرحيب[2]

واللغة عند تاج السر الحسن من إحدى المميزات الدالة على شــعره فلغتــه عربية سليمة. تمتاز بالبساطة والعفوية ، فهو لا يلجأ إلــى الغريــب والحواشــي والقاموس أبداً. وإنما لغته منسابة منسجمة مع المعاني التي يريد التعبيــر عنهــا. كأنما هو يراعي النظير في استخدامه للمفردات البسيطة الخالية مــن الغمــوض ،

---

١ ابتداعية في الشعر العربي الحديث ، تاج السر الحسن ، ص ١٦٢.
٢ الاتون والنبع، تاج السر الحسن، ص١٩.

ولا يعني ذلك أنها لغة نثرية على الإطلاق وإنما هي لغة شعرية رقيقة عذبة انظر إلى قوله في قصيدته "أبي" وهي رسالة إلى والده التي يقول فيها:

ومن بعيد رف حول الشرفة القمر

وأطبقت أعين سائر البشر

لكن عينيك أبي تسير في البعيد

من آخر الصعيد حتى شاطئ النهر

عيناك لم تغمض فقد كانت تضج بالصور

فيها ظلال أرمله

تبكي على أيامها على القدر

في بيتها هناك حيث يسمق النخيل

وتستحم في ظلاله الأطفال والبقر

كانت فتاة عانسه

حزينة وكانت الحياة عابسه[1]

ونستطيع القول عن أسلوب تاج السر أنه تميز بالبساطة والسهولة فهو لم يلجأ إلى الرمز كما خلا شعره عن الغموض والتعقيد ، كما لم يضم قاموسه الشعري غريب الكلام. ولا الألفاظ الحوشية لذا اتصفت عباراته وألفاظه بالرقة والسهولة والوضوح والجزالة.

---

١ ديوان القلب الاخضر، تاج السر ص١١٢.

المبحث الثاني

الموسيقا الشعرية

الموسيقى الخارجية:

ارتبط الاتجاه الواقعي بالشعر الحر ، أو الشكل الجديد القائم على التفعيلة دون التزام بالنظام الموسيقي للبحور العربية المعروفة إذ يرى شعراء هذه الحركة الجديدة أن موسيقا الشعر ينبغي أن تكون نابعة من الألفاظ ذاتها مرتبطة بمدلولاتها، كما ينبغي أن تكون انعكاساً للحالات الانفعالية عند الشاعر.[1]

انظر إلى قول الشاعر وهو يقول:

يا أيها الرفاق يا أبطال

يا صانعي الحياة حيث يقطن الدمار

وحيث لم تزل ترعش في الوجوه

وتملأ القلوب بالحياة والأحقاد

بسمة ذاك الصامد الشهيد

أهكذا يموت "روزنبرج"

أهكذا يموت

لأنه يشيد السلام والأخاء

ويكره الدمار

وفي السجون

زنزانة بقلبها رفيق

يقطع جسمه التشويه والعذاب

لكنه يقسم بالحياة

بشرف الرفاق

[1] دراسات في الأدب العربي الحديث ، محمد مصطفى هدارة ، بيروت ، دار العلوم العربية ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٠م ، ص ٤٣.

بحق تقرير المصير للجميع[1]

نجد أن الشاعر خرج عن البنية الخليلية إلى شعر التفعيلة في هذه الأبيات ، ولكن بالرغم على خروجها إلا أنها جاءت متناسقة النظم.

يقول محمد النويهي : "ربما يبدو غريباً أنني حين أزعم أني أتحدث عن "موسيقى الشعر ... الخ هذا الإلحاح في أهمية الموسيقى الموجودة في الحديث العادي. لكني أود أن أذكركم أولاً بأن موسيقى الشعر ليست شيئاً يوجد منفصلاً عن المعنى ، وإلا وجدنا شعراً له جمال موسيقي كبير دون أن يكون يعني شيئاً ، ولم يحدث لي قط أن أطلعت على شعر من هذا النوع. والأمثلة التي تبدو استثناءاً من القاعدة ليست في حقيقتها إلا اختلاف في درجة الشعر من الموسيقية ، فهناك قصائد تثير بموسيقاها بينما تأخذ معناها أمراً مسلماً به ، وهناك قصائد أخرى تعطي أهتمامنا إلى معناها بينما تثيرنا موسيقا لا ننتبه إليها.[2] انظر إلى الشاعر وهو يقول:

أهذا طريق الحياة الطويل
وأنت تطل على القافلات
وها أنا ألقي إليك النواظر
والركب قد أنهكته الحياة
فنام وفي مقلتي سؤال
وفي خفقاتي صدى أمنيات
ستخبو مع الركب عبر الفلاة
وتذوي على الجسر جسر الممات
ولكن مشعلك الخالد
سيبقى سيبقى طول الحياة[3]

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٩٦.
٢ قضية الشعر الجديد ، محمد النويهي ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالمية ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤م ، ص ١٧، ١٨.
٣ ديوان قصائد من السودان ، ص ٨٧.

يتضح أن هذه الأبيات جاءت على شكل شعر التفعيلة ، أي أنه يقوم على التفعيلة ذات الوزن الموحد ، ويقول الناقد المصري أحمد أمين : "إن أوزان الشعر قد حصرها الخليل بن أحمد في ستة عشر بحراً في عهد الجاهلية إلى يومنا وكل ما فعله المتأخرون أن قلدوه ولم يخرجوا عنه إلا في حدود ضيقة ، وليست البحور الموسيقية إلا موسيقا. والأذن الموسيقية متغيرة فما كان منها يناسب أبي إسحاق الموصلي قد لا يناسبنا نحن بدليل أن أغانينا اليوم غير أغانيهم ، فكان يلزم أن نجدد الأوزان فنجعلها مثلاً بدل ستة عشر وزناً كما جدد شعراء الفونج أوزانهم ، ولكن هو الهمود الشامل والعقل الجامد."[1]

كما أن الموسيقا تخضع الشعر لنظام خاص من الانسجام وتوالي مقاطعة مما يساعد على حفظه وتذكره وترديده بل والتغني به ، وكثيراً ما نجد الذي يصعب حفظه يلجأ قارئه إلى تلحينه ليكسبه موسيقى يسهل معها الترديد والحفظ.

وتعتبر الموسيقا من أقوى عناصر الشعر ، لا لأنه يتميز بها عن الفنون النثرية بل لأن غاية الشعر التعبير عن تجربة انفعالية ، والايقاع هو الوسيلة الشديدة التأثير في الإنسان فهي تخاطب فكره وشعوره معاً بطريقة مباشرة بحيث يمكنه ترجمة كنه الإنفعال وطبيعة التجربة انظر إلى انفعال تاج السر تجاه القضايا الأفريقية حيث يقول:

أكسوم جاءت تشتكي

فهل سمعت شجو أختك

الشقية الحميمه

جاءت يسيل دمعها

بثت إليك قسوة التمزق الجريمه

وأنت مثلها مكلومه

غارقة في حزن مأساتك

---

١ ابتداعية في الشعر العربي الحديث ، تاج السر الحسن ، بيروت دار الجيل ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م ، نقلاً عن الأدب والنقد ، أحمد أمين ، ص ١٣٢٠.

في طوفان نيلك الأزرق

في موجات نهرك العظيمه

ماذا تقولين لهم جميعاً

أبناء أفريقيا المشردين

التائهين ، والمعذبين ، والجوعى[١]

والشعر واحد من الفنون الجميلة هو والموسيقى في منزلة واحدة لأنهما متلازمان ولأن أحدهما متمم للآخر ، ولأن الشعر لم يكن موزوناً إلا لأجل أن يتغنى به أي لأجل أن يكون موسيقى ، ولولا ذلك لما كان للوزن معنى فالشعر لا يقال إلا لينشد أي ليتغنى به. وهذا لا يكون في كل الأحوال ، فمن الشعر ما يراد به الكشف من حقائق مأساوية ومنه ما يراد به الدفاع عن المقدسات.

فالإيقاع الذي يجذب المتلقي ويشد انتباهه يمكن تعريفه بالمعنى الواسع للعبارة على أنه تعاقب أنغامه في عملية تتبع الألحان. انظر إلى قول الشاعر:

الصمت يستمد سحره من الكلام

والليل في عتمته يوغل في الظلام

فما تقول يا صديق

حينما يجيش في أحنائك الأسى والوجد

أو تنداح سورة المدام

فتنتشي بما يكنه الضمير

وحيث طفل وهو في المهد

تخيفه رصاصة

تميته رصاصة

من قبل أن يعرف معنى الابتسام

عظام ترقوته ، وصدره بارزة

ورأسه جمجمة

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ٧٦.

بينة العظام

أبيض شعر رأسه

تجعدت جبهته

لعله أضحى عجوزاً وهو في الفطام[1]

ويقول أحد المجددين: "إن من أسباب تأخر الشعر عندنا جمودنا على القديم من الأوزان ولو كان الشعر متقدماً عندنا لما اضطررنا أن نغير كثيراً من الكلمات عن طبيعتها موافقة للوزن ، وإن جمودنا على القديم ، ليس منحصراً في اللفظ فإن نصيب المعنى من هذا الجمود ليس بقليل ويرى أن الشعر يتطور دائماً لأن الجمود يخالف سنة الارتقاء بل الشعر نابع من تطور الشعوب ، ولما كان تطور الشعوب مستمراً ، فتطور الشعر مستمر وسوف يأتي جيل يستخف بضيق الشعور في جيلنا هذا لسعة شعورهم كما نحن نستخف اليوم بالشعر الجاهلي لضيقه.[2] انظر إلى قول الشاعر:

قلتم إرهابيين

فمن أنتم

يا سدنة صهيون

ها نحن هنا

في ساحات القدس المحتلة

أشباح تنفث رعب الموت

في كل مكان

كل مطار

كل بحار الأرض

وكل عواصمها

كل ثراها

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر الحسن ، ص ٧٨ – ٧٩.

٢ النقد الأدبي الحديث في العراق ، أحمد مطلوب ، ص ٢٧٧.

نحن الشهداء[1]

والملاحظ أن تاج السر خرج عن إطار نظم القصيدة العربية التقليدية ولم يلتزم بها وخرج إلى شعر التفعيلة.

ذلك أن بين معنى الشعر وموسيقاه ارتباطاً حيوياً ، فان معى القصيدة قد يضصيع تماماً إذا ترجمت إلى كلمات منثورة. فالمعنى في الشعر يتطلب موسيقى الشعر حتى نفهمه الفهم الكامل ، وحتى تتأثر به التأثر الواجب له ، فاذا ترجم هذا المعنى إلى نثر لم يؤثر فينا ذلك التأثير الكامل ، لأنه في هذه الترجمة يفقد الموسيقى.

إن الموسيقا شئ لا بد منه في الشعر كما قال النقاد ولكن تفاوتوا في مدى أهميتها وما هو الدور الذي يقوم به حتى تجعله جميلاً منمقاً ، وتجعل الذي يستمع له أو يقرأه طروباً ، وإذا أردنا أن نشبهها نقول: أنها تشبه الملابس الجميلة التي تعكس منظر الذي يرتديها ، ولكن هذه الملابس لا تلزم من يلبسها أن تكون ملازمة له دائماً . ولكن في بعض من النقاد من يتخذ الوزن شئ أساسي ، ويرون أن الشعر لا يقال له شعر دون أن يكون موزوناً على بحر من البحور العربي القديمة ، ويشترطون على الشاعر أن يلتزم بهذا البحر في القصيدة الكاملة دون أن يكسر وزنه ، أو يدخل عليها بحر آخر ، ويجعلون جل همهم على الوزن دون النظر إلى مضمون الشعر. وآخرون من النقاد لا يجعلون للوزن أي اهتمام فإذا وجده كان هو المطلوب وإذا لم يجد لا بأس ، فهم مع مضمون الشعر ولا ينظرون إلى ما سواه. ويقولون إن الشعر ما لا مس الواقع وكان منه ، وهم يعترفون بالشعر الذي له قضية وغاية وإذا لم يكن له قضية يريد الشاعر أن يحققها لا يحسبونه شعراً ، وإن كان موزوناً.

إن تاج السر يترك القالب التقليدي للوزن العربي ، ويتبع القالب الجديد المرن ، الذي يسمح للشاعر بأن ينوع من عدد التفاعيل بين بيت وبيت ، فيزيد منه

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ٣٤ ، ٣٥.

أو ينقص بحسب ما يقتضيه المعنى الذي يريد استكماله في كل بيت انظر إلى قوله:

وفيك يا مدينتي يا زهرة الشمال

روائح العصور والعوالم الخوالي

وقصة مكتوبة بأدرع الرجال

غبارها المطبوع فوق أوجه الحارات

يمد ظله الطويل في الحياة

فالخيل والدروع والمتاريس العتيده

والشعب والطغاة في معارك جديده[١]

في التفعيلة بدلاً عن البنية الخليلية القديمة التي يتخير لها الأوزان الشعرية المتعارف عليها ولكنه أضاف إليها أشكالاً جديدة بعيداً عن التقيد بالقافية ، نلمس في تجربته التكرار النغمي الذي يعطي النص إيقاعاً ، وموسيقا مطربة يجئ ذلك بفضل السعي الجاد من قبل الشاعر للتجديد والابتكار والتعبير الذاتي عن طريقته ويظهر ذلك في معظم قصائده ففي قصيدته "عطبرة" التي يقول فيها:

مدينة الحديد واللهيب

مدينة الشغيلة الأحرار والنضال

تناثرت من حولها المداخن الطوال

ووجه قاسم المرسوم في القلوب

يطل في سمائها المهبب الكئيب

يقطر الحياة

ويرسم المستقبل المنور السعيد[٢]

فإنه يترك القالب التقليدي للوزن العربي ، ويتبع القالب الجديد الذي هو شعر التفعيلة.

---

١ ديوان القب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٩٢.

٢ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٦٧.

يقول النويهي عن هذه القصيدة: "نجد تاج السر الحسن لا يتقيد بقواعد علم العروض فيأتي بثلاثة كسور في الوزن ، ولا شك أن الذوق الكلاسيكي ينفر منها ولكن لا شك أيضاً أن الوزن العربي في حاجة إلى تخفيف قيوده وإخفاء حدة نبرته."[١]

ونجد هذا اللون الجديد من الشعر استهوى الشاعر حيث يقول:

ها أنت مثلي في رحاب الحياة

تمشي ولا تدري إلاما تسير

وأنت مثلي ثورة خامدة

تئن حيرى في رماد السنين

وأنت مثلي إشعاعة عاصفه

تخبو وتبدو في فمي والعيون

فأنت مني ونحن ترنيمة

ونحن صوت يتحدى القرون

لنسمع الخلود أنشودة

رائعة التصوير حرى الرنين[٢]

فهذا القالب المرن سهل حقاً إذا كان هم الناظم مجرد الحشد للعبارات المنظومة ، ولكنه بالغ الصعوبة والامتناع إذا كان يطمح إلى الإجادة ولا يريد أن يسقط في الهذر والإسفاف. فإن تحرر الشاعر من القيد العددي للتفاعيل ، يجب أن يعوضه اتقان كبير للموسيقى الشعرية ومقدرة على التنغيم المنوع.[٣] انظر إلى الشاعر وهو يقول:

أتذكرين كيف تم بيننا اللقاء!

أتذكرين يا حبيبتي الأمسية الخضراء!

---

١ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١٢٥.
٢ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٦٧.
٣ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١٣٢.

كأن الربيع يملأ الأرض بخضرة الزهور

وكان أن ذابت ثلوج الشارع الكبير

وكان أن غرد في دوحتنا عصفور

حلقت يا حبيبتي طرت على مشارف الديار

وعدت عبر قمم الجبال والبحار

إليك ... للعيون ذات الخضرة النضيره

عدت إليك عدت يا فاتنتي الصغيره

فكوننا المليء بالأحقاد والجريمه

وأرضنا التي تحفها المفاجع القديمه

تدفعنا للانتصار والهزيمه

تدفعنا للحب فاتنتي الحميمه[1]

إذا أتقن الشاعر هذا القالب المرن وأدام المران عليه ، فانه خليق أن يقدم إلى الشعر العربي حرية واتساعاً وانطلاقاً هو في أشد الحاجة إليها. وصحيح أن هذا القالب الجديد لا يدخل تغييراً أساسياً في طبيعة الوزن العربي نفسها ، لأن تفاعيله لا تزال نفس التفاعيل القديمة ، أضف إلى ذلك أنه لا يمكن استعماله إلا في البحور ذات التفعيلة الواحدة المكررة ، مثل الكامل والرمل والمتقارب ، أما البحر ذو التفاعيل المختلفة ، مثل الطويل والبسيط والخفيف ، فهو لا يقبل هذا القالب. ومعنى هذا أن هذا القالب لا يصلح إلا لستة من بحور الشعر العربي الستة عشر ، وفي هذا حرمان كبير.[2]

ولكنه برغم ذلك كله القالب الجديد فرصة عظيمة للتحرر والانطلاق على أن هذه الفرصة لا تقتصر على الشكل دون المضمون. انظر إلى قول الشاعر:

أحرقتم وذبحتم كل الناس بلبنان

فهذا أمر مشروع

---

١ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ٢٣.

٢ الاتجاهات الشعرية في السودان: محمد النويهي ، ص ١٣٣.

أو حق للإسرائيليين

أو دستم هامات الأطفال

بجنزير الدبابة

وأحلتم كل الدور إلى أنقاض خرابة

وذبحتونا

بالقنبلة العنقودية ، والسكين

هذا لبني صهيون مباح

حقاً يملكه "بيجن"

أو شارون السفاح[1]

وتعتبر الموسيقا من أقوى عناصر الشعر ، لا لأنه يتميز بها عن الفنون النثرية ، لأن غاية الشعر التعبير عن تجربة انفعالية والإيقاع هو الوسيلة الطبيعية للتعبير عن هذا الانفعال ، وهذه الوسيلة شديدة التأثير في الإنسان فهي تخاطب فكره وشعوره معاً بطريقة مباشرة بحيث يمكنه ترجمة كنه الانفعال وطبيعة التجربة. ويقول الشاعر:

أنا لست جيفة أنا إنه من شعبي المصفود حارقة مخيفه

أنا لست جيفة أنا لست جمجمة كما رسمت أناملك الوجيفه

أنا شاعر قلبي تموج به الحياة هنا وريفه

قلبي ربيعي الأسى ذخرت أمانيه الرفيفه[2]

لكن تاج السر لم يترك القالب التقليدي في كل شعره بل نجده مزج بين التقليدي والتحريري لأن البحور العربية غنية إلى حد كبير بتنوع النغمات التي تصلح وسيلة للتعبير عن التجارب ، ولكن نجد المحاولة تكون بكسر الوزن أو إدخال البحور مع بعضها في قصيدة واحدة. انظر إلى الشاعر وهو يقول:

الضفاف المهدمات يحز الموج في ضلعها وقلب الجزيرة

---

١ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ٣٠.

٢ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٨١.

والنخيل المطل من شقه الشط ظلال على المياه الغزيرة

والسواقي تبكي بلحن كئيب فهمته الجزيرة المقهورة[1]

وتأتي هذه الموسيقى لتعبر عن مضمون جديد تنتفي عنه صفة البساطة الساذجة ، فهو يصور حياة الإنسان في عصر زادت فيه تعقيدات الحياة وتفاقمت مشاكلها حيث يقول في قصيدة "الكاهن":

كان جمع من الشيوخ وكانت مسبحات تشع بين الأصابع

وبخور يمد أجنحة زرقاء ينفضن عطرهن الذائع

وعيون العبيد ذاهلة حيرى تطلعت للإله المخادع

وعلى البعد بين حشد الأناشيد ووقع الخطا الرتيب التتابع

وقف إثنان يرجفان حديثاً عن صفات الولي رب المنافع

إن سيدي تراه عيني ولكن لا ترى لونه العجيب الرائع

وهمو يهمسون والسيد المنهوم في قلبه تضج المطامع[2]

نلاحظ أن الشاعر تاج السر في بعض قصائده تخير البحور الخفيفة الوزن ذات الإيقاع السريع التي تتنوع فيها الموسيقى بعفوية ووعي يزيد من روعة التوقيع ، وتأتي القافية هناك حيث يراد لها وهي بذلك لا تفرض نفسها علىالمحتوى ولكنها تتجسم معه وتؤكده وهو بذلك من الشعراء الذين يؤمنون بأنه ليس هناك شعر بدون موسيقى ، الموسيقى جديدة أو قديمة فيها درجات من التنوع والتداخل بين البحور في بعض الأحيان الأمر الذي قد يفاجئ البعض وقد يرفضه رفضاً شديداً بل لا يحسبونه شعراً.

إن البحور التي تدخلها زحاف أو علل يجعل حركة البحور خفيفة وتقلل من حدة الإيقاع وتجعله متوزايا في جميع القصيدة ، ولأن الزحاف والعلل تقلل من حدة الوزن ، لذلك كانت ذات اهتمام كبير من قبل العروضيين ، بل يشترطون

---

١ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٧٥.

٢ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٧٧ ، ٧٨.

على الشاعر إدخال بعض منها في القصيدة حتى يتساوى النغم في جميعها. انظر إلى قول الشاعر:

وهنا جدتي تسوق الأساطير
وتروي الخرافة السحرية
وهي تلقي على السرير بقايا
جسد منهك ونفس هنيه
وعلى وجهها الصغير خطوط
رسمتها يد الزمان الغويه
وعصاها العتيقة الملويه
وارتجاف الانامل المحنيه
كان في سالف الزمان وكانت
قصة الحب قصة الإنسان
كانت الأرض تزدهي بالأماني
كان ابن النمير يعشق ليلى
وهي كانت أميرة للجان[١]

والقصيدة ذات الطول يجب أن تكون فيها صعود وهبوط في درجتها من الحدة حتى تطابق ما يحدث فعلاً للعاطفة الإنسانية من تروح بين الصعود والهبوط وبهذا التراوح تتم الوحدة الموسيقية الشاملة لبناء القصيدة ككل. فالمهم هو القصيدة بكاملها ، ليس من الضروري أن تكون القصيدة في جميع أحوالها متناسقة النغم. انظر إلى الشاعر وهو يجسد الثورة ويقول:

الظلام الذي يغلف إحساسي ويطوي أنواري الخلاقه
فيغيم السحاب كالغم في قلبي يمتص في الدجى أشواقه
والنشيد العظيم في قلبي الفوار تغتاله سنيني المراقه
مثل ينبوع ثورة غاض في قلبي وقيدت في دمي آفاقه

١ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٨٩.

أنا ما زلت ثورة تشعل الفن دماء مشبوبة دفاقه

أنا ما زلت قوة تدفع النور وتطوي الظلام تطوي اختناقه

ساعدي المصفدان بروح الظلم تواقتان للانطلاقه

فلماذا والفن فجر بقلبي ونشيد مجنح وانعتاقه

وسلاح يزود عن حق شعبي فلماذا أظل دون امتشاقه[1]

إن شعر تاج السر لم يخرج من إطار البحور العربية كله أما المنظوم منه نجد اختار له أكثرها خفة ووقعاً على النفس والأذن. ويختلف الوزن واللحن باختلاف البيئة والزمان والمكان ، فاذا سادت تلك الأوزان الجاهلية مثل بحر الطويل والكامل والبسيط وهي تعد من أكثر البحور شيوعاً ، إذا جاء ما يقرب من ثلث الشعر الجاهلي على وزن بحر الطويل.[2]

ونلاحظ أن تاج السر اهتم اهتماماً كبر في بدايته الشعرية بالوزن. لأن الشعر العربي لم يتخل عنه باعتباره عنصراً هاماً من عناصر القصيدة كما اهتم بالقافية في بعض قصائده ولا سيما في ديوانه المشترك وقصائد من السودان. ولكنه تخطاها بجرأة وبجسارة في بنية القصيدة وإضافة إليها أشكال جديدة التي لا يقيده ، لا قافية مضطربة ولا تكرار نغمي ، والذي فرض عليه هذا هو السعي الجاد على التجديد والابتكار وتعبيره الذاتي عن طريق الأدب.

ومجمل القول إن شاعرنا تاج السر قد اختط لنفسه وسطاً بين التجديدية والتقليدية فهو لا يشترط للشعر إطاراً بعينه عمودياً كان أو تفعيلياً موزوناً ، ما دامت روح الشعر هي التي تميزه عن النثر.

ولذلك نجد تاج السر التزم بالوزن في بعض قصائده التي جاءت منظومة في بحور موحدة ، وكذلك نجده في بعض قصائده يتمرد على الوزن الواحد ويتعداه إلى ما سواه وهذه السمة البارزة في معظم قصائده.

---

١ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٥٩.

٢ العمدة: ابن رشيق القيرواني ، ج١ ، ص ١٣٦.

الموسيقى الداخلية:

تتكون الموسيقى الداخلية من عدة عناصر ، ولعل أهمها أنواع البديع الصوتي والتكرار والجناس السجعي والازدواجي ، ورد العجز على الصدر والتقسيم والترصيع ، والتنوين وغير ذلك من الأدوات والأنواع:

(١) التكرار : وهو عنصر موسيقى ووسيلة من وسائل الموسيقى يقصد به إلى التأثير والترنم وتقوية الإيقاع ، وجرس الألفاظ ومن صوره عند الشاعر في "يأس" التي يقول فيها:

كل شئ يهدمه عدم قاتل كالمنون

وتموت الفراشة

***

والبقاء لمن يظلمون

ومن يقتلون

ومن يحرقون

غير أنا سكتنا جميعاً ... وصحنا

كل شئ يهون

كل شئ يهون

الظلام يسود[١]

فقد استعذب تكرار جملة "كل شئ يهون" فأوردها أكثر من مرتين بغرض تقوية الإيقاع الشئ الذي قوى الإيقاع الموسيقي داخل الأبيات ثم كرر "كل" مما أضفى على الأبيات إيقاعاً لا تخطئه العين وكذلك قوله في قصيدة موت صديق التي يقول فيها:

يا جيلنا الجسر إلى الحقيقه

يا جيلنا الفرحة والنقمه

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر ، ص ٨٥.

يا جيلنا المهد والكفن

يا جيلنا متى سنلتقي

متى سنلتقي

متى سنلتقي

ونحن لم نزل معاً معاً[١]

كرر كلمة جيلنا أكثر من ثلاث مرات كما كرر جملة "متى سنلتقي" بغرض التأكيد وتقوية الإيقاع على أذن السامع.

(٢) الجناس: يسمى التجنيس: وهو أن يورد المتكلم كلمتين تجانساً كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حرفها.[٢] وأيضاً يسمى "المجانسة" وهي المفاعلة من الجنس.[٣] وهو أيضاً "اتفاق الألفاظ واختلاف المعاني".[٤]

والجناس نوعان: إزدواجي وسجعي ، والإزدواجي هو يراعى فيه وزن الكلمات والسجعي تكرار حروفها.[٥]

انظر قول الشاعر في قصيدته "آسيا وأفريقيا" حيث يقول:

مصر يا أخت بلادي يا شقيقه

يا رياضاً عذبة النبع وريقه

يا حقيقه

مصر يا أم صابر[٦]

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر ، ص ٣٩.

٢ الصناعتين ، أبو هلال العسكري، القاهرة، الناشر عيسى البابي الحلبي، ط٥، ١٩٥٢م ، ص ١٢٣.

٣ فن الجناس ، علي الجندي ، العرب دار الفكر ، بدون تاريخ ، ص ٨٩.

٤٤ جوهر الكنز ، نجم الدين أحمد بن الأثير ، تحقيق محمد زغلول سلام ، الإسكندرية ، الناشر منشأة المعارف ، بدون تاريخ ،ص ٨٩.

٥ المرشد ، عبد الله الطيب، الخرطوم، جامعة الخرطوم، ط٢، ١٩٩٣م، ص ٢٦٠.

٦ ديوان القلب الأخضر ، تاج السر الحسن ، ص ١٠٨.

وإذا تأملنا الجانب البديعي في النص أعــلاه يمكننــا القــول أن الجنــاس الازدواجي بين كلمتي "شقيقه ووريقه" أدى إلى تزيين الألفاظ وتحســينها ، ونجــد هذا في شعره ومن ذلك قوله:

غير أنا والليالي حولنا عابرات كخيول مسرعه

والمحيطات جدار ميت مثل كأس بهموم مترعه

هزنا الشوق إلى سدته فحملنا الذكريات الممتعه

وعبرنا ألف بحر ألف دار نحو تلك القمم المرتفعه[١]

فهذا اللون يزين الألفاظ ويحسنها وينمقها ويزيدها بهاءاً.

ونلمس الجانب البديعيي بمختلف ألوانه في شعر تاج السر الحسن. انظــر إلى قول الشاعر في قصيدة "المسوخ" حيث يقول:

أنا ها هنا للسفح للمقهى أرنمها قصيدي

وهنا لدنيا البائسين وهبت في فرح نشيدي

يا أيها الأجداث يا من راعها معنى وجودي

فتهافتت في ثورة المصباح كاليأس المبيد

الضو يعميها فتهوي حول ماضيها البعيد[٢]

نجده هنا يأخذ لوناً من ألوان البديع وهو الطباق وهو في اللغة الجمع بــين الشيئين ، ويقول طابق فلان بين ثوبين المطابقة في الكلام هي الجمع بــين الشــئ وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطابة أو بين بيت من بيوت القصيدة مثل الجمع بين الليل والنهار ، البياض والسواد إلى غير ذلك من الكلمــات.[٣] وأيضــاً "الطبيق والتكافؤ" وهو أن تأتي بالشئ وضده."[٤] فالشاعر في الأبيات أعلاها طابق بين اليأس والفرح وهذا اللون يكسر حاجز الرتابة وتزيين الإيقاع الموسيقي.

وكذلك في قوله:

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ٣٦.
٢ ديوان قصائد من السودان ، ص ٨١.
٣ العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، ج ١ ، ص ٣٠٧.
٤ جواهر الكنز ، نجم الدين أحمد بن الأثير ، ص ٨٤٠.

يا جيلنا الفرحة والنقمة[1]

حيث طابق بين الفرحة والنقمة فهو يركز على علم البديع عليه بصورة واضحة لأن علم البديع هو العلم الذي يختص بتزيين وتحسين الألفاظ، كذلك نجده كثيراً في شعر تاج السر. انظر إلى قوله:

يا صادر الورود والأشواك

حيث طابق بين الورود والأشواك ، وهذا اللون كثير في شعر تاج السر. ونلاحظ أن الشاعر اهتم بعلم البديع أكثر من غيره من العلوم الأخرى. انظر إلى قوله:

يا إخوتي خلف امتداد الهضاب وخلف حيدوب وركب السحاب
وشجر اللالوب قد خيمت ظلالها فوق ظهور البيوت

***

وقصة عن فارس ثائر يبحث عن كنز يعيد الحياة
وعن فتى عاش كولد النمير لا يرهب الظلم وفجر الطغاة

***

محمداً إني سآتي غداً والعيد يأتي في خطى عودتي
والفجر يأتي والصباح الجديد وتضحك الأم لدى ضحكتي

***

وندفن الغربة لا لن تكون في الأرض هذه الغربة الشاحبة
نشعلها في النار. نلقي بها تذرها العاصفة الصاخبة[2]

وهنا تأتي بلون آخر من ألوان البديع وهو رد الفجر على الصدر، وهو أن ترد كلمة من النصف الأول في النصف الثاني منه ما يوافق آخر الكلمة في النصف الثاني.[3]

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ٣٩.
٢ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٧٢.
٣ البديع في النقد ، أسامة بن أحمد بدري ، حامد عبد الحميد ، القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٨م ، ص ٥٠٠.

ومنه ما يكون في حشو الكلام ومنه ما يقع في حشو النصفين.[1] وهذا اللون من علم البديع يحسن الألفاظ ويزينها كما ذكرنا سابقاً لذلك نجد أن الشاعر اهتم به ومن قوله:

كان أنشودة وكنت صداها وكنت لحناً وكان لي هو ناياً

نلاحظ أن الشاعر اهتم بالموسيقى اهتماماً كبيراً على الرغم من سيطرة القومية الوطنية على شعره أكثر من الوجدانية العاطفية الذاتية. يقول:

أنتِ لم تدر حديثي الملهم

أنتِ لم تستغرقي في كلمي

هاهنا غنيت لحني بعدما

مت في ريح الشتاء الأبكم[2]

فالموسيقا في شعر تاج السر واضحة جلية تظهر في تناسق النغم وتآلف الكلمات.

وفي خلاصة حديثنا عن الموسيقى الداخلية في شعر تاج السر الحسن لا نقول أتينا بكل جوانبها ولكن أتينا منها بالقليل من كثيرها ، فالموسيقا في شعر تاج السر تحتاج إلى دراسة كاملة.

---

١ الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، ج ١ ، ص ٣٥٨.

٢ ديوان القلب الأخضر ، ص ٦٦.

المبحث الثالث

الصورة الفنية

مفهوم الصورة الشعرية:

صناعة الشعر شبيهة بالتصوير ، وقد قيل إن القصيدة صورة ناطقة والصورة شعر أبكم. ولا يختلف الشاعر عن المصور إلا في المادة التي يصور بها ، ولأن الشاعر يتخذ طرقاً شتى للتعبير عن صورته الشعرية تتجلى في التمثيل والتخيل ، وما إلى ذلك مما يؤدي إلى عرضها ساحرة باهرة.[١]

ويقول الجاحظ: وإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير.[٢]

ويقول آخر: "إن أهم خاصية للشعر في التعبير بالصورة ، لأنها سبيل الشاعر إلى التأثير على قارئه بالإيحاء إليه فيعبر بذلك عن تجاربه ، وأجمل الصور ما تأتي معبرة عن القصيدة وموضوعاتها."[٣]

ويقول ابن خلدون: "إن الذهن ينتقي التراكيب المنتظمة ويصورها في الخيال كالقلب ثم ينتقي التراكيب الصحيحة فيرصدها كما يفعل البناء."[٤]

ويقول آخر: "الصورة هي أداة الخيال ومادته ووسيلته المهمة التي يمارس من خلالها فعاليته."[٥]

ويقول آخر: "الصورة الشعرية تركيب لغوي لتصوير معنى عقلي وعاطفي متخيل لعلاقة بين شيئين يمكن تصويرها بأساليب عدة ، أما عن طريق

---

١ الشعر سحر وفن، أبو القاسم محمد بدوي، السودان ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، ط١ ، ١٩٩٣م ، ص٥٤.
٢ الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحليب ، ط٢ ١٩٣٨م ،ص ١٣١.
٣ الأدب وفنونه ، عز الدين إسماعيل ، دار الفكر ، ط٦ ، ١٩٧٦م ، ص ٢٣.
٤ مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، مراجعة أحمد زكي ، مصر ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص ٣٠٦.
٥ اصورة الفنية في التراث العربي ، جابر أحمد عصفور ، بيروت ، دار المعارف ، ص ٧٥.

المتابعة أو التجسيد أو التشخيص أو التراسل فهي إعادة إنتاج عقلية ذكرى لتجربة عاطفية أو إدراكية عابرة ليست بالضرورة تعبيرية مباشرة.[١]

ويقول آخر: "من المؤكد أن الصورة في الشعر لم تخلق لذاتها وإنما لتكون جزءاً من التجربة جزءاً من البنيات الأساسية في القصيدة.[٢]

انظر إلى الشاعر وهو يصور القمر حيث يقول:

تطل على القصر والعشة

وتشرق في مروح النسمة

وتملأ قلب الصحاري شعاعاً

تراقص في الصخر والذرة

وتهدي قوافلها التائهات

وراء التلال إلى الواحة[٣]

نجد إن الشاعر صور طلوع القمر في مرحلة اكتماله وقد صوره تصـــويراً دقيقاً نحسه من خلال كلماته الجميلة التي أحسن صياغتها.

إقرأ قول الشاعر في قصيدته "إلى برجوازي" التـــي يصـــور فيهـــا حـــال البرجوازيين في مجتمعه حيث يقول:

لم يبق سوى تصعير الخد

يا صاحب هذي المركبة الفارهة

المزهوة في لون الشهد

شكل وجهك

والغليون أطلقه

للجزر والمد

فالعصر المنهوك

---

١ التجربة الشعرية عند فدوى طوقان بين الشكل والمضمون ، عمر يوسف قادرة ، ص ٧٤.

٢ التجربة الشعرية عند فدوى طوقان ، ص ٧٤.

٣ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٨٥.

على أقدامك ملقىً

والأيام نفايات يا وغد

لم يبق سوى تصعير الخد[١]

وبهذا يتضح أن مجال الصورة الشعرية فسيح فالشاعر المبدع يستطيع أن يخلق بخياله صوراً لا حصر لها تعينه على ذلك ما يقوم عليه لغة الشعر من تشبيه واستعارة وكتابة ومجاز وغيرها.[٢]

والصورة الفنية سمة بارزة من سمات العمل الأدبي ، وإحدى المكونات الأصلية لبناء القصيدة ، وليس من مهمة الأدب عرض الأفكار والحقائق مجردة ولا عرضها بالصورة التي عليها في الواقع ، بل أن يكون تصويرها من خلال المشاعر وتلوينها والسمو بها عن العملية التي يتم بها توليد الصورة الشعرية التي وظيفتها النفسية الأدبية.[٣] انظر إلى الشاعر وهو يصور لنا حاله وهو بعيد عن أهله في قصيدة "أبي" والتي يقول فيها:

غرباء نحن عن أوطاننا آه لو كان مدى الدهر معه

غير أنا والليالي حولنا عابرات كخيول مسرعه

والمحيطات جدار ميت مثل كأس بهمومٍ مترعه

هزنا الشوق إلى سدته فحملنا الذكريات الممتعه

وعبرنا ألف بحرٍ ألف دارٍ نحو تلك القمم المرتفعه[٤]

فالشعر تصوير الكنه النفسي ، كما هو تصوير العالم الداخلي بكليته. هذا ما توضحه الكلمات التي هي واسطته. إن الكلمات هي بالتأكيد التجلي الخارجي لهذا العالم الداخلي من القوى.[٥] انظر إلى قول الشاعر وهو يصور لنا المستعمر الذي استباحه حرمات البلاد حيث يقول:

---

١ ديوان الأتون والنبع ، تاج السر ، ص ٢٥.

٢ تطور الصورة الفنية في الشعر العربي ، نعيم الباقي ، دمشق ، إتحاد الكتاب العربي ، ط١ ، ١٩٨٠ ، ص ٩٩.

٣ الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، ص ٢٦٨.

٤ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر ، ص ٣٦؟

٥ التجربة الشعرية عند فدوى طوقان بين الشكل والمضمون ، عمر يوسف قادرة ، ص ٧٤.

شحب الشفق على الغابات

صمت قحط فجر مات

يا سحر حفيف الشلالات

يا عزف أزيز الرصاصات

هاذا أنت تدوي ، تعلو

تقتل ، تعبث بالأموات[1]

وترجع إلى مقدار ما تتميز به هذه الصورة من صفات باعتبارها حدثاً عقلياً لها علاقة خاصة بالإحساس ، فالصورة أثر خلفه الإحساس على نحو لا يمكن تفسيره ولكننا نعلم أن استجابتنا العقلية والانفعالية إزاء الصور تعتمد على كونها تمثل الإحساسا أكثر ما تعتمد على الشبه الحسي بينها وبين الإحساس وقد تفقد الصورة طبيعتها الحسية إلى حد يجعلها تكاد لا تكون صورة على الإطلاق وإنما تصبح مجرد هيكل ومع ذلك فهي تمثل إحساساً لا يقل عن الإحساس الذي تولده لو كانت على درجة قصوى من الحسية والوضوح.[2]

ويقول إحسان عباس: "لا يمكن النظر في الصورة بمعزل عن نفسية الشاعر إذ أنها تعبر عن نفس الشاعر وأنها تشبه الصور التي تتراءى في الأحلام."[3]

وقسم المحدثون التصوير الشعري إلى ثلاثة أقسام مرئيات ، وأحداث ، وحالات نفسية ، وقد وفق تاج السر توفيقاً جيداً في رسم صورة وصناعتها فاستعان بكل ما وهبت له قريحته من ظلال تعينه على جمال صورة وروعة مناظره فاستخدم التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من الأدوات التي تزين الصورة. إن الشاعر اهتم بالصورة اهتماماً كبيراً.

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ١١٩.

٢ مبادئ النقد الأدبي : مصطفى بدوي ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ١٧٢.

٣ فن الشعر : إحسان عباس، عمان، دار الشروق، ط٥، ١٩٩٢م ، ص ٢٣٨.

فجاء تصويره للكوخ." وهو باعتباره النموذج المصغر للبيئة السودانية ونجد أن قصيدة "الكوخ" كانت بداية شهرة الشاعر وذياع صيته ، وقد وجدت ترحاباً كبيراً من قبل المستمعين والقراء ، أما المختصين بالأدب فنجد أنهم فوجئوا بمثل هذا التصوير الدقيق والعجيب يقول:

وهنا والدي يجئ مع الليل ليقضي المساء بين شعابه

حيث كنا نقضي الأمسي فرحى في حديث نتيه في خلابه

وأخي جالس يحدق فينا كلما قيل زاد في إعجابه[1]

فالتشبيه والاستعارة مهمان في رسم الصورة الشعرية ، لذا لا بد من الوقوف عندهما لنعرف تلك الأهمية أما الاستعارة فهي : "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض وذلك إما أن يكون شرح المعنى وفصل الإبانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه."[2]

ويقول ابن رشيق: "الاستعارة أفضل المجاز وأول أبواب البديع وليس في حلى الشعر أعجب منها وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها."[3] انظر إلى الشاعر وهو يصور لنا العيد الذي زار قرية "عكريت" بعد طرد أهلها منها حيث يقول:

والعيد الزائر ، ينظر ، يتساءل

أين ذهبتم

جئت إليكم في المنزل

لكن الدار كانت طللاً في برقة ثهمد

كانت صامتة، وأثافيها

لم تجب الدار[4]

---

١ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٨٨.
٢ الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، ص ٢٦٨.
٣ العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، ج١ ، ص ٢٦٨.
٤ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر ، ص ١٦.

شبه العيد بالإنسان وحذف المشبه به وهو الإنسان ورمز إليه بشئ من لوازمه وهي الزيادة والنظر والتساؤل والقرينة إثبات لازم المشبه به للمشبه إثبات الزيارة والنظر والتساؤل للعيد على سبيل الاستعارة المكنية.

ولهذه المكانة السامية للاستعارة في تشكيل الصورة الشعرية نجد أن الشاعر تاج السر قد استخدمها استخداماً ناجحاً لإيصال صورته الفنية فاسمع إليه وهو يقول:

الصمت يحدق في المرآة

شبه الصمت بالإنسان ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ورمز إليه بشئ من لوازمه ، وهي يحدق على سبيل الاستعارة المكنية. وهذا كثير في شعر تاج السر يكاد لا يحصى وكذلك قوله:

النيل ذلك العظيم رافع الجبين

شبه النيل بالإنسان وحذف المشبه به وهو الإنسان ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو رفع الجبين على سبيل الاستعارة المكنية.

ويقول المبرد: "إن للتشبيه حداً فالأشياء تتشابه من وجوه وتتباين من وجوه فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقعه فإذا شبه الوجوه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق ولا يراد العظم والإحراق."[1] فانظر إلى قول الشاعر وهو يصور "ثورة الشعب" حيث يقول:

قبضة الفجر مثل شمسون تجتاح قلاع القضبان والجدران

***

ورأيت السودان من مدفن التاريخ يصحو كمارد ذو عزيمة[2]

في البيت الأول ، شبه قبضة الفجر بشمسون وجه الشبه القوي أما في البيت الثاني شبه السودان بمارد ووجه الشبه القوي وهذا النوع من التشبيهات

---

١ قضايا النقد الأدبي والبلاغة ، عبد الواحد حسن ، الاسكندرية ، ط١ ١٩٨٢ ، ص ٤٤٤.

٢ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٥٩؟

جديدة ، لم تعرف في التراث العربي من قبل كما يقول محمد النويهي. وكذلك قول الشاعر:

السماء صافية كعين الديك

والقمر تحوطه النجوم[1]

شبه السماء الصافية بعين الديك ووجه الشبه الصفاء.

ويقول ابن رشيق: "صفة الشئ بما قاربه وشاكله من وجهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه ، ألا ترى أن قولهم خد كالورد إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها."[2] انظر إلى قول الشاعر:

وحوله الأحفاد والنساء

على آماقهن يقطر الندى الحزين

إنا إليه راجعون أجمعين[3]

شبه الدموع بقطر الندى. وجه الشبه الصفاء والنقاء.

وإن الصورة الفنية ضرورة شعرية كما هو الخط بالنسبة للرسام ، فكل الأحداث والأفكار والرؤى والأحلام تتحول إلى جملة من الصور الفنية الدالة أو الرامزة أو المشبه بها، فالصورة الشعرية هي الجانب الفني من العالم الخالي من جفاف الواقع وصلابته وهموم الأرض ومشكلاتها ، ومنه يستمد الشاعر بناءه الداخلي ، وهو كإنسان حساس يمزج في باطنه بين الواقع والمحتمل بل وأحياناً يضخم المحتمل على حساب الواقع ، ووسيلته للتعبير هي نقل المحتمل بالكلمات في صور فنية ما دام المنطق والأفكار تعجز أحياناً أن تبث لنا الشئ المحسوس.[4]

---

١ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ٥٩.
٢ العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، ج١ ، ص ٢٨٦،
٣ ديوان النخلة تسأل أين الناس ، تاج السر الحسن ، ص ٤٣.
٤ التجربة الشعرية عند فدوى طوقان بين الشكل والمضمون ، عمر يوسف قادرة ، ص ٧٧.

ويرى النويهي أن تاج السر في "قصة لاجئ" نجح في تصوير مأساة الاعتداء وأن تصويره صادق فيهما. أما في "الكاهن" نجح في خدمة أهدافه ، وجعلها في صور منتزعة من واقع الحياة.[١]

ويرى السحرتي أن نجاح تاج السر في "قصة لاجئ" و "عيد الفرس" و "الكاهن" يرجع إلى براعته في تصوير حال النماذج البشرية."[٢] حين يصور لنا الشاعر منطقة النهود في فصل الخريف حيث يقول في قصيدته "وادي النهود":

حشائش "السوريب" عندما تسور المياه

وشجر "اللالوب" حينما يفيض بالحياة

والسمبر الأنيق حين زغرد في الخريف

لن تسمعوا سوى صدى الأمطار والحفيف

فما رسمت صورة لوجه كردفان

لكن رسمت قلبي المغترب الولهان[٣]

انظر إلى تلك اللوحة التي صورها شاعرنا عن وادي النهود في فصل الخريف ، نجده يجعل القارئ هو يقرأ تلك الأبيات يشعر أنه أمام صورة متحركة ،وكأنه في الوادي يشتم نسيم الخريف ويسمع صوت الطيور وينظر إلى الخضرة ، بحيث لا يشعر أنه أمام صورة جامدة أو أنه يقرأ شعراً بل يسرقه خياله إلى أنه واقع ماثل. انظر إلى قول الشاعر في قصيدته "أبي" التي يقول فيها:

أبي على السرير مرتمي

في وجهه ابتسامة ماتت على الفم

وآهة عميقة من روحي الظمي[٤]

شبه الابتسامة بانسان ، وحذف المشبه به ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو الموت على سبيل المجاز المرسل.

---

١ تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان ، محمد مصطفى هدارة ، ص ٣٠١.
٢ المرجع السابق ، ص ٤٨٩.
٣ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، ص ٧٦ – ٧٧.
٤ ديوان القلب الأخضر : تاج السر الحسن ، ص ١١٢.

ويتعاون في تشكيل الصورة حواس الشاعر وملكاته وقدرته في الربط بين الأشياء المتنافرة في الواقع لإثارة العواطف والملمات التخيلية وقد يربط الشاعر بين الأمور المتباعدة بالتشبيه وقد يعقد الصلة بين الإنسان والطبيعة. وكذلك قول الشاعر:

وحين تموت الحقائق بين يديكم

شبه الحقائق بإنسان وحذب المشبه به وهو الإنسان ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو الموت على سبيل الاستعارة المكنية.

وبالاستعارة يجعل من الطبيعة ذاتاً من الذات طبيعة خارجة فتجمع الصورة بين التشبيه والاستعارة وغير للمسائل الأداء المجازي والتصوير البلاغي.[1]

انظر إلى قول الشاعر:

ثم يمشي النعاس في الأهداب
في العيون البريئة المطمئنه
في الوجوه الحبيبة المستكنه
ويغطي السكون حتى الطريق الرحب
حتى ظلاله المرجحنه
وتنام الطيور في الأعشاب
حالمات صغارها في الدجنه
برؤى الفجر بابتسام الصباح
بندى الزهر باللحون المرنه[2]

وللتشبيه دور بارز في تحقيق العلاقة بين الأشياء المتشابهة فالشاعر كما يقول ينزل من جهده الفني قدراً عظيماً لتحقيق العلاقة بين عناصر الواقع والفن وقد تكون العلاقة كامنة غير ظاهرة فيتوسل بالتشبيه الذي غالباً ما يعتمد على المدركات الحسية في تشكيله ليظهر علاقة جديدة بين طرفين يشتركان في أمور

١ الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي: علي إبراهيم أبو زيد ، مصر ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ص ٣٤١.
٢ ديوان قصائد من السودان ، تاج السر وجيلي عبد الرحمن ، ص ٨٩ – ٩٠.

وصفات تحقيقاً للمتعة والفائدة التي يهدف إليها الشاعر ومما لا شك فيه أن حسن التشبيه ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد.[١]

وكذلك نجد أنه يميل إلى التشخيص وهو إسباغ الحياة الإنسانية على الجماد والأشياء ويرى العقاد : "أنها ملكة تستمد قدرتها من سعة الشعور ومن دقة الشعور حيناً آخر ، فالشعور الواسع هو الذي يستوعب كل ما في الأرض والسموات والأجسام والمعاني فاذا هي حية لكنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة والشعور الدقيق هو الذي يتأثر بكل مؤثر ويهتز بكل هامسة ولامسة صفر من العاطفة خلو من الإرادة."[٢]

انظر إلى قصيدة الشاعر "عندما حل عيد الفصح" حيث يشخص العيد ويجعله كائناً حياً يعيش مع الناس حيث يقول:

ذهب العيد

ومنذ اللحظة تلك

غاب العيد وراء السلك الشائك

غاب وراء تلال اللحظة تلك

فلقد أرعبه المشهد ، والأحزان

ودموع العجزة والأطفال

وعويل الأرض

بكاء السرو[٣]

والتشخيص هو خلع الحياة والشعور والإحساس والانفعال على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية أي يصورها بعواطف إنسانية وخلجات آدمية تجعلك

---

١ الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي: علي إبراهيم أبو زيد ، مصر ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ص ٣٤١.

٢ الابتداعية في الشعر العربي الحديث ، تاج السر الحسن ، ص ٨٩.

٣ ديوان قصيدتان لفلسطين ، تاج السر الحسن ، ص ١٧.

تحس بالحياة والانفعال في هذه الصورة الجامدة، فالشاعر خلع على العيد الحيـــاة والشعور والإحساس، وجعله كائناً حياً.

وكذلك من النواحي الفنية التي نلاحظها عند شاعرنا عناوين النصوص فهي ذات دلالة نفسية تتعلق بالموضوع الذي يتناوله الشاعر مباشرة تكاد تكشف هـــذا الموضوع ، فليس هناك رمزية أو استبطان على الإطلاق ونذكر بعضاً منها على سبيل المثال ، قصيدة "عندما حل عيد الفصح" التي يصور فيها الشاعر حال العيـــد في القرية "عكريت" بعد طرد أهلها منها. ثم قصيدة "عيد الغريب" والتي يصـــور فيها حال العيد عند الغريب عن أهله وهو بعيد عنهم كما أن الناظر فـــي الـــديوان يجد قبل بداية القصيدة صورة فوتوغرافية معبرة تعبيراً جيداً. ثم قصيدة "الكـــاهن" والتي صور فيها الشاعر استقلال الدجالين وجهل المجتمع لكسب أمـــوالهم مـــنهم بالكذب والشعوذة. ثم قصيدة "زيارة روسيا" والتي يسجل فيها الشاعر الفروق بين الشعوب العربية والغربية. وهكذا الحال في معظم عناوين قصائد الشـــاعر تـــاج السر.

وفي ختام حديثنا حول الصور الشعرية لدى شاعرنا تاج السر جدير بنا أن نذكر أن الشاعر يستوعب التراث استيعاباً جيداً وحينما تقرأ شعره تجد فيه صـــنيع القدماء ، كما تجد فيه صنيع المجددين ، كما تجد أنه كثيراً ما يعمد إلى التشخيص والتلوين لبيان الصورة وإيضاحها ، وبذا يكون شاعرنا قد امتاز برســـم اللوحـــات الفنية وإبداعها فجاءت صورة متلائمة الألوان والخطوط والظلال. ولا ندعي إننا قد أحطنا بكل الصور الجميلة عند شاعرنا ، ولكن نقول هذا شئ قليل من كثير.

الخاتمـــــــــة:

وبعد ، فقد جاءت الدراسة تحت عنوان (تاج السر الحسن الحسين شـــاعراً) وخلصت إلى كثير من النتائج نشير إلى أهمها في النقاط التالية:

١. تجربة شاعرنا تاج السر الحســـن الشـــعرية شـــملت الوطنيـــة والقوميـــة والإنسانية.

٢. تأثر شاعرنا بالشعراء الذين سبقوه ، ولا سيما شعراء المهجر وأخذ منهم ، كما تأثر بمعاصريه من الشعراء.

٣. ميزت تجربة الشاعر الشعرية ثقافة لغوية عالية ، ظهرت في أسلوبه الذي اتسم بالوضوح والسهولة ، والجزالة.

٤. استطاع شاعرنا أن يلائم بين الجديد في الموضوعات وبين الاحتفاظ باللغة في صياغتها وجمالها.

٥. شعر تاج السر تقليدي تجديدي ، فقد احتفظ بالأصول التقليدية التي أضافت لشعره الجزالة والرصانة ، كما توجد في شعره ملامح من الشعر الحر.

٦. خلا شعر تاج السر من المدح والهجاء الفردي.

٧. يعد التكرار من أهم السمات التي تميز أسلوب الشاعر.

٨. لقد أفاد الشاعر من التراث البلاغي في ترقية عناصر موسيقاه الداخليـــة ، فأداؤه الموسيقي يرتكز بصور واضحة على ألوان البديع فـــي الموســـيقى الداخلية.

التوصيـــــــات:

١. ضرورة الاهتمام بدراسة الأدب السوداني والتوثيق لشعرائه حتى لا يظل إنتاجهم مجهولاً في غياهب دواوينهم ، دون دراسة أو تحليل.
٢. تاج السر له نظرات نقدية تظهر في كتابه (الابتداعية في الشعر العربـــي الحديث) يجب الوقوف عليها من قبل الدارسين.
٣. ضرورة دراسة الإرث الأدبي للشعراء الحديثيين ، أمثال : الجيلـــي عبـــد الرحمن ، والحسين الحسن ، وحسن وديع السنوسي ، والاهتمام بالإنتـــاج الشعري الخاص بهم ، وذلك لمقارنتهم بالشعراء القدامى وتقويم وتطـــوير الشعر عبر العصور ، والسعي لتطوير وسائل الإنتاج الأدبي.
٤. الاهتمام بمناهج النقد الحديث في الجامعات السودانية وتوظيفهـــا لخدمـــة التجارب الشعرية الجديدة ، ومواكبة الواقع الثقافي المتجدد.

المراجـــــع

القرآن الكريم.

أولاً: المراجع العربية:

١. احسان عباس، عمان، فن الشعر، دار الشروق، ط٥، ١٩٩٢م.

٢. احمد أبو سعد، شعر وشعراء في السودان، بيروت، مطابع دار المعـــارف، ط١، ١٩٥٩م.

٣. احمد مطلوب، النقد الادبي الحديث في العراق، القاهرة، معهـــد البحـــوث والدراسات العربية، ط١، ١٩٦٨م.

٤. اسامة ابن احمد بدري، حامد عبد الحميد، البـــديع فـــي النقـــد، القـــاهرة، مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٨م.

٥. جابر احمد عصفور، الصورة الفنية في التـــراث العربـــي، بيـــروت، دار المعارف، ط١، ١٩٧٤م.

٦. الجاحظ، تحقيق عبد السلام هـــارون، الحيـــوان، بيـــروت، دار بيـــروت للطباعة والنشر، ط٧، ١٩٩٩م.

٧. حسن صالح التوم، الاتجاه الافريقي في شعر السودان، الخرطـــوم، ســـولو للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٢م.

٨. ابن رشيق الغيرواني، العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقـــده، القـــاهرة، الناشر محمد امين الخانجي، ط١، ١٩٠٧م.

٩. صلاح الدين المليك، شعراء الوطنية في السودان، جامعة الخرطـــوم، دار التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٧٥م.

١٠. عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مراجعة احمد زكي، مصـــر، القاهرة، ١٩٦٠م.

١١. عبد القادر الجرجاني، دلائل الاعجاز، لبنـــان، بيـــروت، دار المعـــارف، ١٩٩٤م.

١٢. عبد الله الطيب، المرشد، الخرطوم، جامعة الخرطوم، ط٢، ١٩٩٣م.

١٣. عبد الهادي الصديق، أصول الشعر السوداني، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط١، ١٩٨٩م.

١٤. عبد الواحد حسن، القضايا في النقد الأدبي والبلاغة، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٢م.

١٥. عبده بدوي، الشعر الحديث في السودان، القاهرة، جامعة القاهرة، ط١، ١٩٦١م.

١٦. عز الدين اسماعيل، الادب وفنونه، دار الفكر، ط٦، ١٩٧٦م.

١٧. علي إبراهيم أبو زيد، الصورة الفنية في شعر دعبل الخزاعي، مصر، دار المعارف، ط١، د.ت.

١٨. علي الجندي، فن الجناس، العرب، دار الفكر، د.ت.

١٩. عمر يوسف قادرة، التجربة الشعرية عند فدوى طوقان بين الشكل والمضمون.

٢٠. أبو القاسم محمد بدري، الشعر سحر وفن، السودان، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط١، ١٩٩٣م.

٢١. محمد إبراهيم الشوش، الشعر الحديث في السودان، الكتاب الأول، الشعر التقليدي وبداية التجديد، جامعة الخرطوم، قسم التأليف والنشر، ط٢، ١٩٧١م.

٢٢. محمد النويهي، الاتجاهات الشعرية في السودان، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٧م.

٢٣. محمد النويهي، قضية الشعر الجديد، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالمية، ط١، ١٩٦٤م.

٢٤. محمد مصطفى هدارة، تيارات الشعر المعاصر في السودان، بيروت، دار الثقافة، ط١، ١٩٧٢م.

٢٥. محمد مصطفى هدارة، دراسات في الادب العربي الحديث، بيروت، دار العلوم العربية، ط١، ١٩٩٠ن.

٢٦. مصطفى بدوي، مبادئ النقد الادبي، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢٧. نجم الدين احمد بن الاثير، تحقيق محمد زغلول سلامة، جوهر الكنز، الإسكندرية، منشاة المعارف، د.ت.

٢٨. نعيم الباقي، تطور الصورة الفنية في الشعر العربي، دمشق، اتحاد الكتاب العربي، ط١، ١٩٨٠م.

٢٩. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، الصناعتين، القاهرة، الناشر عيسى البابي الحلبي، ط٥، ١٩٥٢م.

٣٠. الياس فتح الرحمن، وحيدر إبراهيم، جيلي عبد الرحمن، شاعر الوقت في سياق آخر، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١م.

ثانياً: الدواوين:

١. الحسين الحسن، حبيبة عمري، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، ط١، ٢٠٠٤م.

٢. تاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن، قصائد من السودان، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١م.

٣. تاج السر الحسن، ديون القلب الاخضر، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١م

٤. تاج السر الحسن، قصيدتان لفلسطين، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١م.

٥. تاج السر الحسن، ديوان النخلة تسأل اين الناس، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م.

٦. تاج السر الحسن، الاتون والنبع، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢م.

ثالثاً: الصحف:

١. صحيفة الصحافة السودانية ، العدد ٤٥ ، بتاريخ ١٩٧٧/٩/٢٢م.

رابعاً: مصادر أخرى:

١. الفضائية السودانية، برنامج اسماء في حياتنا، ٢٠٠٥م.